مجموعة
قصصية

زفير

حسام قنديل

اسم الكتـــاب : زفير (مجموعة قصصية)

التأليـــــــف : حسام قنديل

إخـــراج فنـــي : هيـــام فهيم

رقم الإيـــداع : 2019 / 21036

الترقيم الدولي : 978-977-835-152-1

زحمة كتاب للنشر والتوزيع

Facebook : دار زحمة كتاب للنشر

Email : za7ma-kotab@hotmail.com

Tel : 002 01205100596

Tel : 002 01100662595

بوك جارد للطبع والنشر

Facebook :Book Guard for publishing

Email : bookguard. publishing @gmail.com

Tel : 002 01554870240

جميع

الحقوق محفوظة للناشر

كل الحقوق محفوظة

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة

بأي شكل من الأشكال

ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

الإهداء

إلى كل من آمن

بدون سبب

أن ذاك الصامت غريب الأطوار

لديه ما يقول على أوراقه..

١. زفـيـر

إخراج شيء ما ..

على عكس خافيير موظف الطيران المسؤول عن صعود الركاب للطائرة، تملك ليليان المضيفة المتقاعدة صوتًا جهوريًا مُحلى بطريقة كلام مميزة لكل الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية.. صوتٌ قادرٌ على إيقاظ الموتى كما اعتاد زوجها "ريك" أن يخبرها كلما نادت على أي من أولادها الستة. عاش الركاب المنتظرين للطائرة المتجهة من إنديانا لشيكاغو تلك الخبرة المروعة عندما قررت ليليان أن تصرخ فور رؤيتها لصديقتها "ويندي" وسط الركاب أمام بوابة الصعود إلى الطائرة، فانتفض جميع من ينتظرون نداء خافيير ذو الصوت الهادئ الذي لا يمكن سماعه واضحًا حتى بمساعدة مكبر صوت لبدء الصعود للطائرة. حتى "قاسم" ذو النوم الثقيل والذي كان قد غفا بعد ثمان ساعات في انتظار الطائرة و "سيلين" السارحة في ملكوت ذكريات ليلتيها السابقتين انتفضا فزعًا عندما بدأت ليليان سيل لعانتها المعبرة عن شدة فرحتها برؤية صديقتها القديمة.

"يا لك من عاهرة محبوبة.. لم نلتق منذ خمس سنوات عندما كنتُ رئيسة طاقم الضيافة في طائرة نيويورك سان فرانسيسكو.. أتذكرين أيتها الشمطاء.. كنت تكرهين كل السود آنذاك لكنك أحببتني، أحببت بذائتي وأحاديثي غير التقليدية التي تسري الرحلات الطويلة.. أليس كذلك".

هكذا صرخت ليليان بصوت خفت قليلًا بعد سيل الترحيب السابق لكنه ظل كافيًا ليغطي على صوت خافيير الذي نادى على ركاب الدرجة الأولى ورجال الأعمال ومن يحتاجون مساعدة خاصة لبدء الصعود للطائرة. الجميع خرج من دائرة التفاعل مع مرحلة الصعود إلى الطائرة إلى تفاصيل علاقة ليليان بويندي، والتي عرفها كل من تواجد في محيط يبلغ كيلومترا من المحادثة.

"ماذا أفعل هنا..؟؟!! يا للعجب، أنا مضيفة يا عزيزتي، حتى وإن تقاعدت أستطيع التواجد هنا وقتما أريد.."

مزحة ثم ضحكة قضت على الإعلان الثاني لركاب المنطقة (١) و(٢) في الطائرة مما جعل خافيير يترك مكبر الصوت، ويقترب من ليليان - التي بدا أنها تعرفه - ويهمس لها ببضع كلمات،

فضحكت ثم عدلت من حقيبة يدها، وأرسلت له قبلة في الهواء مع إيماءة برأسها..

"حسنا يا طفلي، منزعجين من صوت أمريكا.. هذه يا طفلي هي الطريقة الوحيدة ليعرف الناس أنك هنا.. الصراخ..". ثم التفتت لويندي مرة أخرى "دعكِ منه..! هل أنت على الطاقم..؟ لا يبدو ذلك..! ربما كُنت عند صديقك العجوز في اندي تمارسان حب المتقاعدين..! حسنًا.. أنا مسافرة إلى ديترويت.. يبدوا أن العم ستيفن في طرقه للقاء الرب.. "

لسبب ما التفت خافيير إلى ليليان وشرد قليلًا فلفتت سوزان زميلته انتباهه أنه يجب أن ينادي على المنطقتين (٣) و(٤) لبدء الصعود إلى الطائرة..

"لقد فسدت رئتاه.. سبعون عامًا من التدخين لم يدمروها وعام واحد من التوقف جعله أسير جهاز تنفس صناعي.. الرجل يمتلك رئتان من القطران الذي يجب أن يُسقى بمزيد من الزفت.. لم يصدقني أحد عندما قلت لهم ذلك..! حتى عندما لم يعد جهاز التنفس الصناعي مجديًا. لم يسمعوا لي عندما طلبت منهم أن يعطوه سيجارة كي يتحسن.. عليهم اللعنة، لقد اضطروا في النهاية

لشراء جهاز خاص من بوسطن كي يساعده على إخراج الزفير.. تخيلي..! أصبح الرجل يستطيع إدخال الهواء إلى صدره ولا يستطيع إخراجه إلا بمساعدة جهاز.. الأطباء يقدرون ما بقي له بشهر واحد، ينتهي بعد أسبوع.. أتمنى أن يموت في إجازة نهاية الأسبوع لتتاح لنا فرصة رؤية المدينة..؟

(١)

هل يمكن استنساخ ذلك الجهاز لإخراج أشياء أخرى غير الزفير.. يحتاج قاسم بشدة لذلك قبل أن يعود إلى القاهرة عبر لندن التي سينتظر فيها سبع ساعات تطارده حقيقة ما كان عمله قبيل مغادرته إلى الولايات المتحدة لحضور ذلك المؤتمر.

في كل جلساته مع الجيل الأصغر سنًا، يصر قاسم على قاعدة "القاعدة" وهي أن كل إنسان يبحث عن محور وقاعدة ثابتة يتحرك منها نحو أحداث حياته، ويعود إليها في النهاية.. يمكن لكل إنسان أن يأخذ الوقت الذي يحتاجه كي يقرر هذه القاعدة المكانية أو المهنية. قاعدة قاسم التي اختارها كانت مصر، ولم يخرج منها إلا لتحقيق هدف ما وعاد فور انتهاءه من تحقيق هذا الهدف. اهتزاز القاعدة في عُرف قاسم أمرٌ نادرٌ ويحتاج إلى حدث

مزلزل كالذي مر به قبيل سفرته هذه المرة فكان القشة التي استحضرت أحداثًا أخرى مزلزلة تراكمت على مدار سنوات..

(٢)

حتمًا ستحتاج سيلين لجهاز كجهاز العم ستيفن لنسيان لمسات بول على جسدها لدورات متعددة خلال اليومين السابقين. لم تكن تتوقع ما حدث وما وصل إليه الأمر، كما يحاول عقلها الباطن مساعدتها في تخطي عقدة الذنب الناتجة عما حدث. لكن الحقيقة كانت أنها تهرب من بديهية أن تواجدها لعطلة نهاية أسبوعٍ كاملةٍ مع حبيبها السابق سيفضي بهما إلى الفراش سويًا من جديد. ترددت كثيرا في قبول دعوته لقضاء العطلة في إنديانا ومشاهدة عروض ومباريات الكرة الخارقة **Super Ball** التي تقام هذه السنة في إنديانا مستغلًا أنه سيكون وحيدا بدون زوجته. انتهى العرض لتكتشف أنه لم يقم بحجز فندق لها، ولم تقاوم عندما عرفت أنه في طريقه لمنزله، بل بدأت هي ككل مرة في الاقتراب غير البريء منه بقبلة بعد الكأس الأول، ثم كان ما تسترجعه في كل ثانية منذ أن أوصلها بول إلى المطار..

(٣)

رأى قاسم ووثق مئات حالات الفساد سنوات عمله السابقة في أكبر مؤسسة مالية مانحة في العالم، وخبر الكثير من التعقيدات البيروقراطية التي تنفرد بها مصر والتي لا مبرر لها إلا التغطية على فساد ما.. ساهم طول صبره وتفاؤله الطبيعي بالإضافة لوجاهة وظيفته ومميزاتها المرتبطة بتقبل مثل هذه التجاوزات في اتساع مساحة تحمله لصدمات متباينة وعنيفة في بعض الأحيان.. لكن الصدمة الأخيرة كانت خارج حدود تحمله، خصوصًا أن تمرير طلب ذلك الرجل الذي زاره منذ أسبوعين في سلطة قاسم فقط كممثل للجهة المانحة للقرض الذي يمول مشروعًا عملاقًا تعيد الدولة تدوير خبر البدء في أعماله كل فترة للتباهي بإنجاز لم يبدأ بعد.

طالب الرجل المهيب عبر جهته الرسمية بخمسة وعشرين مليونًا لإزالة مبنىً أُنشئ حديثًا لسبب ما على مسار خط القطار الذي رسمته الجهة التي ينتمي إليها الرجل ذاته قبل إنشاء المبنى بنحو عامين.. حقيقة فجة خلاصتها أن مصدر خريطة مسار طريق القطار أصلًا كان هو نفس المؤسسة التي ينتمي إليها الرجل الذي

يطالب الآن بثمن إزالة ما بنوه عمدًا على مسار هم من رسموه في الأصل.. وعليه هو أن يمرر تلك الحقيقة اعتمادا على مبرر الرجل وجهته الوحيد لطلب المبلغ وهو أن القرض الممنوح للمشروع يغطي ما هو أكثر، فلا مانع من خمسة وعشرين مليونًا لإزالة عقبة في طريق المشروع..

المنطقة (٨) في الطائرة هي حيث ينتمي قاسم الذي نهض فور سماع صوت خافيير الخافت ينادي على منطقته وسار بهدوء متسائلًا.. "هل يوجد نسخة من ذلك الجهاز الذي يستخدمه العم ستيفن لإخراج زفيره لإخراج مثل تلك المواقف..؟"

(٤)

الأمر مفزع بحق.. ولا تدري سيلين كيف يشعر بول بما حدث، وما إن كان يستحضر كل حركة وقبلة واندماج وشبق كان في ليلتيهما كما تفعل هي..؟ هي تعلم أنها قد لا تراه لسنوات، وقد لا يتبقى لها من مرورها في طريقه إلا رجفة انتشاء تمر بها كلما تذكرته في أعماقها حسيًا وجسديًا.. بل يجب عليها أن تتابع صوره مع زوجته ومنشوراتهما التي تمجد حبهما الخالد الذي يمكن أن يكون حقيقًا، وهي تعلم أنها كانت في فراشه بطلبه وإرادتها الحرة

منذ أيام أو شهور، ربما كأداة لتأجيج حبه لزوجته عن طريق نزوة متكررة مع حب قديم، أو لحظة فراغ عاطفي وجنسي يرغب في ملأه بذاتِ شبق تَخرُجُ معه عن كل حدود، أو ربما يتعامل معها كمجرد عاهرة.. طريقة حياته تشي بأن بول لا يعاني أعراض الاستدعاء الذي تعانيه وتحتاج إلى قوى غير بشرية لتتخلص منه، بل يمارس حياته بشكل طبيعي تمامًا كما لو كانت هي حدث عابر.. مثير وممتع، لكنه عابر.

(٥)

وجوده في حالة السفر هو النشاط الوحيد الذي يشعر فيه قاسم باتساق مع ذاته وحياته الخالية من العلاقات الإنسانية تقريبا، فهو لم يتزوج رغم اقترابه من الخمسين، ولم يتبق من أسرته إلا أختٌ تعيش في أمريكا منذ ربع قرن ويراها كل بضع سنوات.. حقيبة صغيرة، رحلات متواصلة مع فترات تحويل رحلات (ترانزيت) تمتد لعشرات الساعات يستمتع فيها بمراقبة نشاطات البشر المختلفة في بلاد مختلفة.. صراخ ليليان كان من الحوارات المتميزة التي عبثت بمنطقة يحاول جاهدًا اسكات غليانها.

في عملٍ سابق حكى له صديقٌ نوبي عن طقوس الأفراح النوبية التي تبدأ فقراتها الحقيقة بعد مغادرة الزوجين إلى المنزل.. حكى عن المغني الذي يتمادى في شرب الحشيش والبيرة لدرجة أن يغني أغنية بينما يعزف مع الفرقة لحنًا لأغنية أخرى.. تلك هي حياة قاسم خارج حدود المطارات، أغنية بديعة شكليًا على لحن بديع لكن لا علاقة لأحدهما بالآخر.. أغنية تدور بين عمله الذي يكره كل أحداثه اليومية لكنه مستمر فيه لدخله الضخم ووضعه الاجتماعي المرموق والأسفار المتعددة التي يتيحها له، وبين أصدقاءه الذين هم مجرد معارف تدور في فلك إما مصالح مشتركة، أو متطلبات مظاهر اجتماعية وعلاقات منفعة حولت تلك المعارف إلى دائرة مقربة نتعامل معه في معظم الأحيان كممول لمظاهر اجتماعية أو وسيلة لتحقيق أحلامهم، وبين سلامٍ نفسي مفقود منذ سنوات لا يتذكرها، سلامٌ لا يشعر به إلا في المطارات وهو على حال سفر..

ربما يحتاج جهازاً كجهاز العم ستيفن ليخرج من نفسه كل تلك الخواطر والذكريات..

- سيدي.. أنت في المنطقة ٨ صحيح ..؟
- نعم
- دورك في صعود الطائرة يا سيدى..

كان هذا خافيير بصوته الهادئ وهو يناول قاسم جواز سفره وبطاقة صعوده الي الطائرة

- هل أنت بخير..؟ سأل قاسم الرجل
- بخير يا سيدي.. أتمنى لك رحلة سعيدة

(٦)

خافيير تابع قاسم الذي سار عبر ممر الصعود إلى الطائرة بهدوء حتى اختفى عن نظره. هل هو بخير..؟ هو أبعد ما يكون عن كونه بخير.. اليوم اكتشفت زوجته سرًا واحدًا من أسراره المتعددة، سر كان كافيًا لأن تطلب الطلاق بدون تردد لأنها لا تستطيع أن تتابع حياتها مع شخص مزدوج الميول الجنسية.. والطلاق في هذه البلاد يعني ما هو أكثر بكثير من مجرد خسران الأشخاص..

صديقه أرنولد وعده بأن يقف معه للنهاية لأنه يحبه بحق، أو يصدق هذا الهراء عن انتصار الحب المختلف، لكن خافيير - والليلة بالذات - على ذكر جهاز إخراج الزفير قرر أن يستعمل جهاز العم ستيفن بشكل تخيلي ليُخرج من أعماقه كل ما يتعلق بما فعله في العامين السابقين تحديدًا، ودمر عشرين عامًا من حياته التي دأب على بنائها..

خلاصة ما خرج من نفسه في البداية أن ثمة شيء مختل هاهنا..

مظهر خافيير الهادئ ونبرته المهذبة ضللا رؤية حقيقة هوس جنسي تنامى على مدار عمره لدرجة أن تخيلاته صارت كالشهيق والزفير، وتخطت كل الحدود لتضع كل من تقع عليه عيناه في مجال هوسه.. لم يكن أمره يَحتملُ أن يُفتضح لأن المرات المتعددة التي خرجت فيها عربدته عن إطار التخيلات كانت في ولايات ودول متباعدة حرص على عدم انتظامها وارتباطها. لم تكن تلك المرات على تعددها وتجدد نوعياتها كافية إلا لتوطد يقينه بأن هناك مزيدًا من مستويات اللذة حاول أن ينالها مع تماديه في البحث عما وراء اللذة التقليدية للجنس الذي أُلِف مألوفهُ. يقينه بأن هناك المزيد جعله يتطلع إليه عبر موضة الحرية

الجديدة الملونة بألوان قوس قزح، فقادته هلاوسه إلي تجربة أولى طالما نفر منها..

لم يتغير الاشمئزاز من التجربة في البداية، ثم ألف غرابتها، فتعود عليها ثم طلبها، ولم يكتشف حقارتها التي سيطرت على نفسه حتى أنسته سكرتها حذره فيما يتعلق بجانبه الشهواني إلا عندما خسر زوجته التي شعرت بتغيره معها في حميم علاقاتهما، فتتبعت ما يخصه حتى أوصلها سجل مشتريات بطاقته الائتمانية إلى وحدة التخزين التي استأجرها منذ عام ونيف وما فيها ومن كان معه فيها وقت أن فاجأته هناك اليوم تحديدا..

(٧)

- هل يمكن أن تقوم بنقل رحلتي إلى الرحلة التالية غدًا هناك أمر بالغ الأهمية يجب ان أنهيه قبل أن أرحل..

أخرج سؤال سيلين خافيير من خواطره، فاستعاد ابتسامته وتناول بطاقة صعودها للطائرة وتلفت حوله ليتأكد أن الجميع قد صعد بالفعل. بضع نقرات على لوحة مفاتيحه ثم ابتسم مرة أخري وقال بصوته الهادئ:

- أنت محظوظةٌ يا سيدتي.. لدينا مقعد في طائرة الثامنة صباحًا ولن يكلفك أكثر من مائة دولار فقط.. سأتم لك الحجز الآن لو كان المبلغ مناسبًا
- لا مشكلة
- حسنا.. أتمني أن يكون الأمر على ما يرام يا سيدتي..
- لا.. ليس على ما يرام.. أحتاج أن أنهي علاقة مسممة.. هذا كل شيء

(٨)

يقينًا.. العلاقة الأكثر تسممًا في حياة قاسم هي عمله.. شعور الذنب القاتل الذي يطارده مع كل تنازل يقدمه كان يورثه احتقارًا لنفسه يفوق ما رآه في عيني موظف الطيران "خافيير" الذي يحمل جبلًا من الهم رآه قاسم واضحًا لدرجة أنه سأله عما به مباشرة. الوضع مع قاسم أكثر تعقيدًا، فما يبقيه في عمله رغم مئات الأدلة التي يجمعها كل يوم هو المال والوجاهة الاجتماعية فقط.. عشرات الملفات والميزانيات الملفقة والتسجيلات الصوتية التي وثقها وأخفاها تشي بأنه لا يختلف كثيرًا عن عاهرة تبيع

جسدها بكثير من الدولارات، وهي حقيقة تحتاج لجهاز زفير عاتٍ لإخراجها من نفسه ليتقبل صورته في المرآة..

(٩)

هل يحب أرنولد..؟ بل هل يحبه أرنولد..؟ على مقياس ما أخرجه جهاز زفير العمل ستيفن من نفسه، كل هذا هراء يستغل موضة سارية ليؤصل لمجرد رغبة في خطوة إضافية في سلم اللذة الذي لا ينتهى.. المتشابهات تتنافر في العادة، قد تحتاج لقوة غير منطقية وغير نقية لجعلها تتجاذب ثم تتراكب، لكنها تظل حالة مؤقتة تتحدى طبيعة أو - بالنسبة للمؤمنين - قانون الخالق الذي لا يرحم.. هكذا تعلم في الفيزياء، وهكذا أثبتت له تجربته التي دمرت حياته الطبيعية التي بدأ يشتاق إليها بعد بضع ساعات من فقدانها رغم أنه لم يُقدّر قيمتها يومًا.. قد يستطيع جهاز العم ستيفن إخراج حنينه لحياته الطبيعية وندمه على ما كان فيتمكن من التعايش مع علاقته بأرنولد ومستمرًا في مقاومة الفيزياء الطبيعية للأجساد، أو قد يُخرج الجهاز ذكرياتِ جانبه المظلم وما جره إليه، وربما يمحو ما رأته "باربرا" زوجته كي يتمكن من العودة إليها كما كان.. من المؤكد أن مخترعي الجهاز يستطيعون

تطويره ليحل هذا الأمر، المشكلة أن ليليان قد مضت للحاق بطائرتها ولم يعد من الممكن سؤالها عن تلك التفاصيل التقنية.. خواطر هزلية ساقت ابتسامة مريرة إلى شفتيه وهو يلملم أوراق الطائرة المغادرة ليسلمها إلى إدارة المطار وينال بعض الراحة ثم يلحق برحلته التالية التي سيُسكن ركابها.

(١٠)

شخص آخر يسيطر الآن على تصرفات قاسم الذي طلب باقة اتصال بشبكة **Internet** على الطائرة وكتب بريدًا إلكترونيًا طويلًا عن كل ما يعرف، وأرفق به نسخًا إلكترونية من كثير من المستندات، ثم أرسله إلي صديقه العزيز في وكالة أنباء شهيرة سيسيل لعابها بالتأكيد لنشر قنبلة كتلك، خاصة أن تلك المنصة الإعلامية تناصب مصر العداء صراحة. بريد آخر لـ"دانيش" مديره المباشر في الجهة المانحة للقرض الممول للمشروع يحمل استقالته في رسالة طويلة ختمها بملاحظة ذكر أنها شخصية: "لازلت أذكر تلك النظرة العبقرية التي نظرت إليّ بها في أول اجتماع لنا سويا في أول أيام عملي.. نظرة لا تصدر إلا من ممثل تخضرم في الأدوار المبتذلة. يومها تساءلتُ أنا عن مرجعية الهراء

الذي كنت تهذي به في عقد العمل وسياسة القرض..؟ صدقني.. لا يستطيع أعتى الممثلين في أحقر أفلام المقاولات الرخيصة أن يجمع الحيرة والمفاجأة والصدمة والاستنكار والاشمئزاز والكبر في نظرة كالتي وجهتها إليّ.. نظرة فهمت بعدها أنها من المكونات الرئيسية لأي لص يحاول أن يغلف سرقاته بغلاف احترافي. الحقيقة أيها اللقيط أنكم رغم بدلاتكم الفاخرة وسياراتكم الفارهة مجرد لصوص تستحقون الفضيحة التي لن أكون هناك لأراكم فيها وأسجل نظراتكم الحقيقة وقتها، ربما أكون في السجن أو مقتولًا أو أقضي حياتي مسافرًا بلا هدف وهو الحل المثالي بالنسبة لي حاليًا..." ثم زر الإرسال، فالاسترخاء في مقعده مستمتعًا بصورة المعبد المنهار على رؤوس الجميع.

(١١)

طريق طويل مواز لخط قطار البضائع، ثم الدخول إلى الطريق السريع مرورًا بملعب الجولف المركزي، يمينًا ثم يسارًا فطريق آخر طويل عبر الكثير من المسطحات الخضراء حتى الشارع رقم ٧٤ حيث يعيش بول. شكرت سائق أوبر Uber، ثم ترجلت عن

السيارة عازمة على إنهاء ذلك الهراء الذي داومت على دفع ثمن الاستمرار فيه بكل جزء من جسدها لسنوات عديدة.. طرقت الباب بعنف وهي تعلم يقينًا أنه لن يبدي أي ندم أو حزن على قرارها. دقائق معدودة مرت قبل أن يفتح بول الباب وعلى وجهه آثار النوم ليتفاجأ بها أمامه تدفعه بقوة وتغلق الباب ثم تغيب في شفتيه بقبلة تختلف عن أي قبلة سابقة..!!

(الختام)

هناك قبلة لن تنساها ليليان أبدا مهما حاولت.. تلك التي كانت من "ريك" منذ أسبوعين، قبلة ذكرتها ببداية حياتهما قبل الزواج.. قضت ليليان الرحلة بالكامل تتخيل تلك القبلة من أكثر من زاوية واستمتعت بكل لحظة حتى أنها تمنت أن تمتد الرحلة القصيرة لبعض الوقت. أوحى لها الأمر تستغل نصيبها من إرث عمها ستيفن لقضاء إجازة في بورتوريكو مع "ريك" يستعيدان فيها سنوات الجنون الأولى. هبطت طائرة ليليان لتكتشف عشر مكالمات هاتفيه فاتتها من منزل العم ستيفن، المحتوى لا يحتاج الي توضيح لكنها اتصلت على رقم ابنة عمها لتسمع ما توقعته:

- ليليان.. لقد مات..!

صراخ مليسا الذي تردد في مطار إنديانا على بعد مئات الأميال كان مختلفًا، فصوتها أقل حدة وأكثر رقة من ليليان، لكن صراخها لم يكن مفتعلًا كصراخ ليليان عندما عرفت خبر موت عمها.. صرخ مليسا رعبًا لأنها رأت مشهدًا لن تنساه بسهولة عندما فتحت حمام غرفة استراحة طاقم الطائرة العالق عنوة بحثا عن خافيير الذي قرر أن ينهي الأمر بأكثر الطرق بساطة ومباشرة.. لم تعلم مليسا بأمر قراره إلا عندما تأخر عن الحضور لبوابة المغادرة ولم يُجب عن مكالماتها المتتابعة رغم أنها رأته منذ لحظات يدخل إلى حمام غرفة الاستراحة الخاصة بأطقم الطائرات حيث وجدت جثته الغارقة في دماء شرايينه المقطوعة..

تمت ...

٢. زحـــام

حكاية عشوائية

كوكب الأرض متسع بحق.. مائة وثمانية وأربعون مليون كيلومترًا مربعًا من اليابسة يعيش عليها نحو ثمانية مليارات آدمي، يشكّلُ منهم "سيد الضبع" فردًا واحدًا يقف في غرفة معيشة شقته التي تمتد منها شرفة صغيرة تُظهر للمارة طلاءً أزرقًا رخيصًا أحاط جدرانها بطابع غير مريح، خصوصًا مع تساقط بعض أجزاءه العلوية عن بقع بيضاء كالبرَصِ في جلد رجل أسمر.. "سيد" في الخامسة والخمسين من العمر.. خمسة وخمسون عامًا تركت كل سنة تجعيده في وجهه، أو خيبة وانكسارًا في نفسه أو مرضًا ينهشُ جسده.. لم يعد يسيطر على ذهن "سيد" في الأيام الأخيرة إلا تساؤلٌ عن جدوى حياته التي يشعر بقوة أنها تقترب من نهايتها.. لم يدر من أين جاء التساؤل، لكنه تصاعد مع حلول عيد الأضحى الذي يمنحه فرصة من الفرص القليلة لإشباع شهوة كالأكل، والتي تذكره برفاهيةَ التنبه لحقيقة أن في الحياة رغبات وملذات ما يمكن أن تمنحه سعادة ولو وقتية غابت عن طفولته

البائسة المنسية، ومراهقته التي لا يذكر منها غير سجائر الحشيش القليلة التي كان يبتاعها كلما جمع بعض المال، ورجولته وكهولته التان دمرتهما مسؤوليات الزوجة التي توفاها الله منذ سنة، والأبناء الأربعة الذين تزوجوا ورحلوا إلى بيوتهم.. ألام عادية متكررة جاءت من أمال عادية جدًا تَلخّصَ تحقيقها لاحقًا في شقة ضيقة في مجاهل حي المكس بالإسكندرية يطل من شرفتها الآن متأملًا من الشرفة التي تبعد مترين فقط عن شرفة شقة "سليمان" الذي يملك هو الآخر واقعًا شبيهًا وإن كان أصغر سنًا.. زوجةٌ عادية أنجبت له أطفالًا عاديين، سيظلون يمنحونه أهدافًا عاديةً متسلسلة عبر مراحل تعليمهم الأقل من العادي.. أهداف قد يمكن لـ"سليمان" أن يكمل بها حياته مؤقتًا حتى اليوم الذي يجدوه فيه ميتًا على سريره، أو يسقط فيه ميتًا أثناء عمله تحت وطئ السكري الذي لم يجد له إلا علاجًا عاديًا يمنحه القدرة على الوقوف على قدميه، قدرةٌ منقوصةٌ يكمّلها بحقيقة أن عمله هو الحائل الوحيد بينه وبين الموت جوعًا. قد يضطر "سليمان" يومًا إلى بتر ساقه كما حدث مع جاره الآخر "محروس" القاطن في الشارع المقابل.. الشارع الذي يكاد لا يتسع لسيارة واحدة،

ورغم ذلك يصر "طارق" سائق "أوبر" على أن يمر بجانب سيارة "سلامة" القادم في الاتجاه العكسي كي ينهي رحلة بدأها "سمير" وزوجته "سها" اللذان قررا أن يقصدا الإسكندرية ليوم واحد بغرض "تغير الجو" والهرب من وطئه القاهرة ورتم حياتها المجنون، خاصة مع إجازة عيد الأضحى التي تلت إجازة نهاية أسبوع حافل. تقترب السيارتان ويطوي كلا السائقين "طارق وسلامة" مرآته كي لا تتحطم ويعبران بمعجزة ما، لا تقل عن معجزة بقاء "محسن كفتة" - كما يلقبه أهل المنطقة - حيًا حتى اليوم رغم توقف قلبه أربع مرات من قَبل جرّاء جرعات مخدرات زائدة، نجا "كفتة" ليتحول إلى ذلك الزومبي الممتلئة ذراعاه بالأوشام والهائم على وجهه في الشوارع المحيطة بمنزل "سيد" و"سليمان" و"محروس" و"رامي" والذي تتقارب فيه البنايات حتى يمكن لكل جار أن يصافح جاره المقابل من شرف المنزل دون حتى الحاجة للانحناء..

"رامي" مشكلته أكبر من ذلك بكثير، حيث يحاول منذ سنة تقريبًا أن ينال ذلك الركن المتسع في الشارع المقابل للقهوة التي يمتلكها.. تكوّنتِ المساحةُ التي تقارب السبعين مترًا تلقائيًا

كنتيجة لرص بنايات الحي عشوائيًا في تلك المنطقة المتاخمة لحي المكس. الركن يبدو مثاليًا كامتداد لقهوته الصغيرة التي يعتاش على نشاطها القانوني في أغلب الوقت.. كُلُّ ما يحتاجه هو أن يبدأ في إزالة أكوام القمامة من ذلك الركن المنعزل الذي اتخذه سكان المنطقة مقلبًا لقمامتهم التي لا تُرفع أبدأ، حتى إذا ضاق الركن بقمامتهم وزعوها بالعدل على أركان بناياتهم حتى صارت أكوام القمامة من العلامات المميزة لتلك البقعة الصغيرة، حتى أن معارضة "زكريا" العنيفة لرغبة "رامي" في مد بساط قهوته ليشمل تلك الساحة بدت كمعارضة لإزالة القمامة أكثر من امتداد القهوة، وهي حقيقة توارت عن "رامي" لأنه لم يعرف أن زكريا قد دفن "أسماء" - وهو الاسم الذي أطلقه عليها لأنه لم يعرف اسمها - في تلك الساحة منذ عامين وأربعة أشهر، بعد أن اختطفها هو "علاء سرنجة" واغتصباها في بدروم منزله، وفعلتها الفتاة وقررت أن تموت تحت وطئ الصدمة، فجعلا قبرها تحت أطنان القمامة. مات "علاء سرنجة" منذ عام فاطمأن "زكريا" لموت سره الذي يهدد "رامي" الآن باحتمالية فضحه رغم أنه

صب الكثير من الخرسانة فوق طبقة المطاط التي وضعها فوق الجثة لضمان عدم اكتشافها..

لم يقلق موقف "زكريا" "رامي" الآن أكثر من الخطوة التالية المطلوبة منه وهي رشوة "فرج" موظف الحي الذي أتي أكثر من مرة تلبية لشكوى السكان من تعاظم جبال القمامة، فلم يُفد بعد معاينته إلا بأنه لا يستطيع عمل شيء، لأن كل بنايات تلك الزنقة غير قانونية، رغم أن الحي قد وصّل لها المياه والكهرباء بمعجزة ما.. بالطبع نال شطائر الكباب من حاتي "بلبول" رغم سلبية إفادته، لكن الكباب كان لمجرد أن يأتي إلى المكان للمعاينة فقط، ولم يُناقش أحدٌ معه أثناء الاتفاق إصدار أي قرار، حيث أن لذلك تسعيرة أخرى يجب على "رامي" أن يستشير أحد المقربين من "فرج" كي يعرفها، بحيث لا يمانع أن يمنحه تلك الرخصة مقابل ربما بضعة ألاف يمكن أن يوفرها بصعوبة من بيع مزيد من الحشيش تحت ستار قهوته، أو مقابل مشروبات مجانية لـ "فرج" طوال عمره في الامتداد المستقبلي للقهوة التي اتخذها الكثير من شباب الزنقة مرتعًا للجلوس بلا هدف لمناقشة أحلام وطموحات لن تتحقق.. تلك الأحلام أحيانًا تشكل مهربًا

لـ"فادي" من حقيقة أن حياته أصبحت تتلخص في أعداد لا نهائية من أحجار معسل القص - المغشوش غالبًا، أو الوقوف على ناصية العطفة الثالثة مع صديقه "صموئيل".. العطفة الثالثة لها ميزة خاصة كلفتهما الكثير من العراك والشتائم وأحيانًا الدماء عندما فقدا ثالثهما "علاء سرنجة" في مشاجرة عظمى نالوا بها حق الانتفاع بالعطفة والسيطرة عليها، فلم يعد أحد يعترض على وقوفهم يدخنون الحشيش هناك، بل لا يشاركهم أحد في وقفتهما على رأسها مع من يستضيفونه أحيانًا..

"العطفة الثالثة" تقع مع نهاية شارع متسع امتلأ جانباه بجلود الأضاحي المغمورة بالملح كتمهيد لمراحل دباغة تتم في الهواء الطلق وسط حي سكني مكتظ، مما جعل تلك الأيام مميزة برائحة لا تطاق، رائحة مختلفة عن الروائح الأخرى - التي لا تطاق أيضًا - والمنبعثة من أكوام القمامة وروث الأحصنة الجارة للعربات التي تمرح في المكان حاملة زائري المدينة الساحلية.. بيد أن ميزة العطفة الكبرى هي أنها آخر نقطة في التكوين العشوائي للمنطقة، وبداية الطريق الرئيسي الذي يقود عبر المكس إلى منطقة رأس التين ثم العجمي في اتجاه ووسط الإسكندرية في الاتجاه الآخر..

الطريق يمر منه دائمًا بعض الحسناوات اللائي يعملن في المطعم السياحي الكبير الذي كان يقصده "سمير" وزوجته "سها" كنشاط رئيسي لليلتهما الوحيدة في الإسكندرية، والتي كبدتهما ثروة صغيرة لقضائها في فندق ذو خمس نجوم، وعشاء فاخر في مطعم أسماك يقع على البحر مباشرة..

تفرّسُ تفاصيل الحسناوات العاملات في المطعم كان نشاطًا يستحق أن يتقاتل عليه شباب المنطقة رغم أن مرورهن يتكرر كل يوم كل حسب ورديّاتهن.. تمر الفتيات بزي المطعم المثير أو بملابسهن العادية لمن يتاح لهن تغير ملابسهن قبل مغادرة العمل، ثم يركبن المواصلات من نفس النقطة قرب العطفة الثالثة..

لكن "رنيم" ذات العينين الخضراوين الشفافتين كانت الهدف الأساسي لـ"فادي" وأحيانًا "يامن" الذي كان يتخذ من صداقته لـ"صموئيل" سببًا لأن يقف على العطفة محملقًا في تفاصيل تلك الحسناء الممتلئة صاحبة العينين العفاريتيتين والتي تقف كل ليلة بانتظار المشروع (الحافلة الصغيرة) ليقلها غالبًا إلى منطقة بحري حيث تعيش..

"رنيم" لاحظت نظراتهم يوميًا دون أن تفرق بينها أو بينهم، كانت متأكدة أن تحرش هؤلاء الصبية بها بصريًا وأحيانا بلمسات خاطفة عندما يعلو أثر الحشيش على عقولهم ضريبة يجب أن تدفعها مقابل شيء ما لا تدركه الآن.. ربما لاحقًا، أو ربما عقاب من الله على خلعها للحجاب تلبية لشروط العمل في المطعم السياحي.. جزء منها كان يؤمن بأن الله لا يقّيم الأمور بهذه الطريقة، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في تلك الخاطرة التي ألقتها صديقتها "زينب" في نفسها يومًا عندما مرت "رنيم" بعاصفة تحرش جماعي أفسدت أسبوعها بالكامل حتى أنها فكرت في الانتحار، ثم عدلت عن الفكرة، أو أجلتها لسبب لا تذكره.. اتسقت "رنيم" مع واقع أن هناك ما هو أسوأ في الطريق لحياتها، فلم تعد تبادل ملوك العطفة النظرات، بل كانت تعبر مطرِقةً وكأنما تغض بصرها عنهم.. فهمت بعدها بشهور وهي تفكر في سبب لإطراقها أثناء جلوسها في "المشروع" أنها أعرضت عن تأملهم اشمئزازًا.. اعتبرتهم جزءًا من حياتها المثيرة للاشمئزاز، جزءً من القمامة المنتشرة في المنطقة، والتي أعادوها حتى لم يعد يمكن تميزهم عنها.. ناهيك أن وجود تلك الأكوام سيطر على الواقع في

تلك المنطقة – ومناطق أخرى - حتى أنه لم يعد يضايق أحدًا، تمامًا كتواجد هؤلاء الصبية في حياة "رنيم" وصديقاتها اللائي صاروا يعتبرونهم أكوامًا إضافية لأكوام قمامة منتشرة في حياتهن..

طبقات من القمامة جعلت "يسرا" تقرر الاستقالة بعد أن أكدت لـ "رنيم" وجهة نظرها عندما حكت لها أن "كريم عِرسة" - كما سمعتم يلقبونه ويهنئونه بعد فعلته - تجرأ اليوم ومد يده لامسًا إياها سريعًا وهي تهم بركوب المشروع.. "يسرا" في لحظة صراحة أمام عيني "رنيم" المريحتين اعترفت أن أكثر ما ألامها بعد فكرة الانتهاك هو طبيعة اللمسة.. لمسة لا يمكن أن تكون بغرض استثارة أو شبق أو عشق أو حتى شهوة.. بل هي كلمسة كلبٍ يطارد سيارة بلا هدف فتوقفت السيارة فجأة ليصطدم بها ثم يعدوا هاربًا.. لذلك مرت مرور "بصقة في البحر المتوسط ".. بصقة بصقها "عرفان" العامل على الحفار العائم قبالة المطعم السياحي الكبير الذي يتناول فيه الآن "سمير" وزوجته طعام العشاء..

بصقة في البحر المتوسط لن تفسده، لكنها قد تفسد حياة إنسان يعيش في نقطة وسط مائة وثمانية وأربعين مليون كيلومتر مربع من اليابسة..

سياق وسط مليارات السياقات الأخرى تكوّن حيوات متعددة.

سياق حياة واحدة، من المحتمل أن يخلق الاعتياد عليها عقدة لقصة يكتبها كاتب مختل، قرر أن يصيغ حكاية بلا عقدة أو حل أو بداية أو وسط أو نهاية.. حكاية عبارة عن بقة ضوء تتحرك عشوائيا على أشخاص في حيٍ في مدينة في محافظة في بلد في قارة وسط عالم متسع، لكنه ضيقٌ في الوقت ذاته..

حكاية عشوائية..

لكنها تبقى الحياة اليومية التي اختارها البعض..

تمت...

٣. ناسكٌ وراهبةٌ وأرضٌ مشتركة

الناسك ..

هل هناك قدسية خفية في الحانات حيث يعاقر أرباب الخمر ممن هم مثلي محبوبتهم الأولى..؟

سؤال يبدو هزليًا، لكن إن فكرنا فيه قليلًا سنجد الكثير مما هو مشترك بين أثر الخمر وحالات التجلي والكشف التي يتغنى بها المغرقون في عوالم القرب ممن يتعبدون له.. أليس كذلك..؟

غشاوة على العقل، العين ترى أبعد من الملموس، اللسان ينطلق بالكثير مما لا يمكن قوله في عوالمنا الواقعية، حالة النشوة والبعد عن كل ما يُنغّص الحياة بلا قيد أو شرط، مع غياب كامل لكل أنواع الذكريات، وخلق حاضر جديد ولو لبعض الوقت.

قد تؤذي الخمر المعدة بنفس القدر الذي قد يمسخ به الدينُ العقلَ عند عدم التعقل في خوض تفاصيله.. لذلك سأكون حريصًا على صحة معدتي ولن أصل إلى كامل اللذة التي تُرجى من الخمر.. سأتركُ بعض الفراغ للذة أخرى تتعلق بتلك الحسناء باهرة الجمال التي تتكئ على البار، وتوزع نظراتٍ مستهزئة على الجميع وهي

نتناول كأسها الأول الذي لم تنته منه مع وصولي إلى الكأس العاشر الذي قررت أن يكون الأخير وحدي.. أحتاج بعض المجهود لأنهض، ودافعٌ كجميلتنا لأتجه إلى البار وأجلس إلى جوارها مبتسمًا بسماجة، وقائلًا بسماجة أكثر:

- أهلًا.. لماذا تشربين وحدك..؟ المكان هنا لا يقبل الوحدة..!

الراهبة ..

أحب تلك النظرات الجائعة التي تتكاثر من حولي.. أكاد أتغذى عليها وأهضمها بسرعة ثم أخرج فضلاتها نظرات احتقار تتوزع على الجميع بالتساوي.. الحانة وسط رائع لوجبة شهية من النظرات المتلصصة، وخلاص مذهل لكم احتقار أَحمله للعالم، وأُخرجه على عينةٍ منتقاةٍ من حثالته.. بالإضافة أن الخمر التي تُقدّم هنا رائعة..

انتقيت ثوبًا مميزًا لزيارتي الاسبوعية.. لا أحبُ الكشف السافر، لكنني أعشق الكشف المتدرج الذي يُغري الناظر بالمجهول الذي لا يراه. نوع من إضافة التوابل إلى الوجبة التي أتناولها ليس أكثر.. توابل من نوعية فتحة الصدر التي تتوقف عند نقطة

حرجة وتشي بثمرة مكتملة النضج، والتنورة الطويلة الضيقة التي تتوسطها فتحة تعتلي الركبة ببضعة سنتيمترات..

إشاراتي تشي بكثير من الخيالات التي تذهب بعقول أعتى الرجال بلا استثناء، وثمار جنة تتوارى خلف أوراق شجر كثيفة تَظهر بعض تفاصيلها مع كل هبة ريح، وهبات ريحي كان حركات مدروسة ولفتات هادئة وصلت بالبعض إلى حدود الإغماء كما أرى..

النظرات المُحتَقِرةُ تتصاعد إلى ما هو أقسى عندما يتجاوز أمثال هذا الرجل الذي ظل يحدق بي قرابة الربع ساعة محتسيًا خمره. الرجل حمل كأسه فجأة وكأنما ينتزع نفسه من توتره ونجله الخفي الذي لاحظته في عينيه عندما اقترب..

جزء من ذلك الرجل - وسيم الملامح - يرفض وجوده هنا، لكن سلوكه تقليدي.. سلوك تعودت عليه وحفظت رد فعله.. وهو متسق مع تشبيهي الأول عن فقرة إخراج الفضلات التي استمتع بها بقدر متساوٍ مع كل نشاطاتي هنا.. إخراج عنيف في وجهه بعد وجبة مبالغ في دسامة سخافتها..

الراهب ..

"خمسمائة وسبعة عشر جنيهًا وخمسة وستون قرشًا" كان أول مرتب تقاضيته منذ سبعة عشر عامًا في عملي الأول. أذكر وقوفي في طابور تلقى المرتبات في المبنى الملحق بالمبنى الرئيسي للشركة الحكومية التي عملت بها لثلاث سنوات مع مجموعة من العمال، وبستاني حديقة يعمل في المؤسسة منذ ثلاثين عامًا، ولم أره في الحديقة ولو لمرة واحدة حتى توفي في نهاية عامي الأول هناك.. البستاني يبتسم لي بحماسة مبالغ فيها ويقول ضاغطًا على حروفه بحماسة أكثر أننا هنا لـ "نقفش" أي ننال مرتباتنا..

ما الجديد في الأمر..؟

الجديد أنني عرضت الآن على تلك الفاتنة مرتب شهر كامل - منذ سبعة عشر عامًا - لقضاء ليلة واحدة فقط معي..

أعيش وحيدًا منذ انفصالي عن زوجتي السابقة، الثانية أو الثالثة.. لا أذكر لأنهما تداخلا في فترتيهما واجتمعا على ذمتي لبعض الوقت، حتى اكتشفت الثانية وجود الثالثة ثم اكتشف الثالثة أن لها سابقة، واكتشفا في ذات الوقت تقريبًا وجود ثلاث علاقات أخرى متزامنة مع وجودهما، فحدث الانفصال

الذي لا أذكر تحديدًا من نالته منهن أولًا. المهم.. أن لدي يوم في الأسبوع أتخلص فيه من ضغط العمل والذكريات المسمومة باستضافة أمثال تلك الجميلة، وهو للصدفة يوافق اليوم.

نظراتها لا تشي بأي شيء، رغم أن نظرات من يمتهنَّ هذا العمل يسهل قراءتها.. ذلك الإغواء الرخيص المبتذل الذي يحملنه في العادة يعبر عن نفسه بكل قوة.. نظرات فاتنتنا لم تحو إغواءً من أي نوع.. احتقار ربما، اشمئزاز أو قد يكون خوف مبتدئين.. ربما لا تمتهن هذه المهنة من الأصل.

استمتاعٌ خفيٌ لاحظته في ملامحها أيضًا، استمتاع زاد بشك هستيري عندما صرخت وقت أن مِلتُ على أذنها وعرضت الخمسمائة جنيه مقابل ليلتنا:

- عندما نَهضتَ من هناك ماشيًا خلف نداء عضوك - أيها الحقير - اخترت الشخص الخطأ، جلوسي هنا لمشاهدة أمثالك من الحيوانات التي تهرول خلف غرائزها لا يعني أنني أحد أدوات إرضاء تلك الغرائز.. عد إلى مكانك ولا تحاول تعقيد الأمور على نفسك وإلا لانتهى الأمر بك بلا شيء تلبي ندائه..

هو الرفض إذا..!

لماذا يستخدمن تلك الجمل الطويلة للرد على عرض بسيط..؟ يكفي أن تقول لي لا، فهي ليست بحاجة لتثبت رهبانيتها لأننا أصلًا في حانة..

الراهبة ..

توقعت الجملة بشكل أقل مباشرة. لم يحيني، لم يبتسم، لم يدعُني لشراب.. قرابة الساعة في التأمل المتواصل لجسدي انتهت بعرض أن أرافقه مقابل خمسمائة جنيه في الليلة.. ربما خاض حوارًا ما معي في ذهنه تحت تأثير الخمر الذي تفوح رائحته من فمه خيَّل له أنني مستعدة.. عامة لقد نال ما يستحق.

الناسك ..

لا أحد يحكم على إنسان من موقف واحد.. وليس بيني وبينها إلا موقف واحد فقط، أحتاج إلى مجموعة مواقف تتيح لي حكمًا موضوعيًا على صاحبة الأهداب الحادة كالسيوف.. هذه الفتاة هي التحدي الأكبر لتلك الليلة التي عبث فيها جمالها وعطرها

الشبيه بما تطلقه الذبابة لجذب الذكور ببقايا العقل الذي أحمل، وتكتلات الهرمونات التي حلت الآن مكان بقايا العقل المذكورة.
لا يمكن الحكم على شخص إلا بمجموعة من المواقف، ويكون الحكم أكثر موضوعية لو كان الحكم بناءً على موقف واحد متكرر والموقف سيكون عرضًا آخر بضعف السعر.

الراهبة ..
ورد فعل آخر لا يقل قسوة على السابق، مع كأس من الخمر في وجه ذلك الحيوان الثائر.. سأضيف ثمن تلك الكأس إلى تكلفة متعتي عند التنكيل بأمثاله..

الناسك ..
أنا أكره دبي، أكره مبانيها الشاهقة، وطبيعتها البلاستيكية القاسية التي تصيب القلب بالانقباض، وذلك اللغز الذي تعرضت له في العام الماضي عندما كنت أمارس هواية الصيد الليلي فقابلت تلك الحسناء الأوزبكية التي أخبرتني أنها تتقاضى ألفا درهم إماراتي في الساعة الواحدة..

بشكل مباشر بدون لف أو دوران، ودون إضاعة لحظة واحدة، لاطفتها فعرضت ساعة معها مقابل ما يقرب من عشرة ألاف جنية، ورفضت طبعًا.. فقط لأنني لم أكن أملك ذلك المبلغ آنذاك..

اللغز الذي يؤرقني حتى الآن هو: ماذا كانت ستقدم مقابل كل ذلك المبلغ..؟

الهرمونات تعشق المجهول، وعندما يتعلق الأمر برجالٍ مثلي وهبوا أعضائهم للتجارب وهرومانتهم للتقبات البركانية مع مغامرات متعددة، فالمجهول هو التحدي الأكبر. المجهول قد يغطي على جمال الوجه مقابل الرغبة في استكشاف جسد غامض لا تفهمه، قد تغطي رائحة عطر وتمايل مدروس يظهر وعودًا بما لم تره عين على تعقل أي شخص اختار أن يكون مثلي.. سأعرض عليها العشرة ألاف ولنر هل سترفض راهبتنا المصونة التي أتت لتتعبد في حانة نصف مرتبي الذي كنت أتقاضاه منذ خمس سنوات..

"يُختبر إخلاص الرجل عندما يملك كل شيء.." حكمة بلهاء قرأتها يومًا على صفحات التواصل مرفقة بصورة رئيس أمريكي سابق وزوجته.. أنا أملك كل شيء، ولست مضطرًا لأُخلص

لأي شخص.. في هذه الحالة إما أن أهب حياتي للبذل غير المشروط أو للعشق الممتزج باللذة..
أنا منحتها مناصفة لكلاهما..

الراهبة ..
يكفي هذا القدر من الوقت والإثارة على البار.. لازال هناك ساعة في جدول يومي أستطيع الاستمتاع بمزيد من الاسترخاء، أو الإثارة إن قرر صاحبنا مواصلة مفاوضاته معي لقضاء ليلة معه في مكان ما.. المرة القادمة أخطط لركلة تُنهي القضية عند حد ذلك المبلغ التافه الذي يتحدث عنه..

الناسك ..
كوب الخمر الذي تلقيته في وجهى كان نهاية مرحلة "الحرث" وهي المرحلة الأولى في عرفي للتفاوض على مشهد بورنو متأجج.. "الوضوح" أولا.. فإن فشل، انتقلت لمرحلة الأرض المشتركة..
نحن نملك بالفعل أرضًا جغرافية مشتركة وهي تلك الحانة، وأخرى مزاجية وهي الخمر، ونحتاج للحركة إلى مستوى آخر من الأرض المشتركة في طريقنا إلى الفراش المشترك.. أنا أملك في

رأسي عرضًا يصلح كأرض مشتركة نبدأ منها. عرضٌ الحصول على المجهول وجعل الخبر الذي يساوي مالًا مجاني..

عرض سألقيه لمرة واحدة..

انتقلَت إلى طاولة عوضًا عن البار، وهذا أفضل.. سأتركها لبضع دقائق أُشغل نفسي فيها بالإعجاب باتساقي الغير مسبوق مع نفسي في حالة السكر وحالة اليقظة.. في كلتا الحالتين أنا الباحث أبدًا عن أرض مشتركة تصلح للانطلاق للخطوة التالية أيًا كان الموقف والاختلاف مع الطرف الآخر.. فاشل بامتياز أحيانًا ولكن في معظم الأحيان ناجح أيضًا بامتياز..

هل يصلح الحب كأرض مشتركة..؟

لا أعتقد أن تلك المرأة تؤمن بهذا الهراء - مثلي تمامًا - فمن تتلوى بتلك الطريقة لا تعرف إلا حبًا بطريقة واحدة فقط.. بالإضافة أن ما هو ميت لا محالة لا يصلح أبدًا كأرض مشتركة..

عرفت هذا بالطريقة الصعبة عبر ثلاث زيجات فاشلة، وعشرات العلاقات التي وصلت لمختلف المستويات، ولم يكتب الاستمرار

لأي ممن ذكر فيها الحب، بل على العكس تمامًا.. كان الحب قاتلها في معظم الأحيان.

من جاء وقد قدّر له الموت، يحمل الموت كطاعون لا يكتفي بقتل حامله، بل ينشره بلا هوادة.. وفي الحديث عن الحبِ مهما كان قويًا أو صادقًا.. الحبُ يقتله التجاهل، اللامبالاة، التبلد، التصنع، الهلع، التهربُ منه، الخوفُ منه، الخوفُ فيه، القلقُ عليه، حصره في شهوة أو في مصلحة.. الغدر، الكذب، الصدق، الفقر، الغنى، المرض، العجز، الموت.. قد يقتله المجتمع، الأهل، العمل، الطموح، الطمع، البخل، البلاهة، الغباء، الذكاء، البعد، القرب، الخيانة، الإخلاص، التملك.. بل وأحيانًا يقتله الزواج أو الطلاق أو الفراق أو الشقاق أو النفاق أو سوء الأخلاق أو حُسن الأخلاق..

بالتأكيد.. الحب ميتٌ لا محالة، و"الميت لا محالة" لا يُعوّل عليه.. والهالكُ يُكفَرُ به، والكفر يَستوجبُ إيجاد البديل الأكثر منطقية، وكل من أدرك تلك الحقيقة له بديله الذي يمنحه القدرة على مواصلة الحياة..

وأحد بدائلي أمامي الآن على طاولة بار..

فلسفة رائعة ويبدو أنني لفتت انتباهها، لأنها سمحت لي بالجلوس وأن أتحدث معها عن الحب الذي يموت يقيناً دون أن تغرس كعبها الحاد بين فخذيّ. الوقت مناسب لعرضي الذي لا يمكن رفضه.. عشرة ألاف جنيه في ليلة واحدة فقط. عرضٌ جعلها تحدّق في وجهي غير مصدقة في البداية، ثم تتراجع بظهرها على المقعد بابتسامة ساخرة متسائلة بصوت أكثر سخرية:

- لا يعرض مثل هذا العرض إلا فاقد رجولة يريد ما هو مخالف للطبيعة، أو مجنون..

الأرض المشتركة تلوح في الأفق.. ضحكتُ رغم دعابتها السمجة وتلميحها بأنني مهوس بنوع مختلف من الجنس، أو فاقد رجولة، أو مجنون، ثم رددت بهدوء:

- أنا كثير من الأشياء والصفات ليس من بينها أنني فاقد الرجولة.. هو مجهول أعدك به كما تملكين أنت الكثير من المجاهيل التي أرغب في اكتشافها..

الأرض المشتركة تزداد صلابة، ابتسامتها تتسع، وتجمع أغراضها المبعثرة على الطاولة في حقيبتها دون أن ترفع عينيها عن وجهي ثم تومئ برأسها أن "هيّا بنا"..

لم أنهض، ولم تختف ابتسامتي، بل اتسعت وأنا أتأمل إثباتًا عمليًا على مذهب الأرض الثابتة المشتركة التي أبحث دومًا عنها..

تعاظم إعجابي بذاتي وفكري حتى ندت عني ضحكة منتشية تبعتها بعبارتي:

- جميل.. بعد أثبتنا أنك عاهرة كمبدأ.. الآن يمكننا التفاوض على السعر..

تمت...

٤. شركة العباقرة

(١)

أحلام اليقظة، هي الطريقة الأثيرة لدى سوسن لتسرية أوقات الانتظار الطويلة، خاصة عندما يرتبط هذا الانتظار بعدم فعل أي شيء. تماما كالصف اللانهائي الذي تقف فيه الآن، بعد مقاومة عنيفة لفكرة الحضور لطلب المنتج الذي يُوَزّع في المصنع الممتد الأطراف.

يقع المصنع الذي يوجد منه الآلاف حالياً، خارج المدينة ببضعة كيلومترات، لتجنيبها الازدحام الجنوني لطالبي منتج شركة العباقرة المالكة له حيث -حسب ما قرأت سوسن على شبكة المعلومات- لم تتوقف الماكينة التي اخترعتها الشركة عن الدوران لقرابة العقد الآن، وخدمت حسب آخر الإحصائيات قرابة الأحد عشر مليون شخص..

لم يَعتد المجتمع الإنساني على ثورات في علاقات أفراده ببعضهم البعض، حتى أعلنت شركة في نهاية عام ٢١٢٠ - أي من أربعة عشر عاما - عن استحداث ماكينة غيرت كل شيء في بضع سنوات. لم يُعرف من هو مخترع تلك الماكينة، ولكن أرباح الشركة تصاعدت بشكل جنوني، وبدون أي دعاية، إلا شهادات من جربوها مجاناً، كمرحلة تجريبية استمرت قرابة الثلاث سنوات. لم يصدق أحد ما يعرضه الوحش المعدني ذو الخمسة أمتار ارتفاعا، والثلاثة أمتار عرضاً من الأصل. حتى عندما ثارت معارك قانونية ودينية جهنمية حول السماح بعمله، لم يكن من خاضوا تلك المعارك يصدقون أياً مما تناثر عن إمكانيات الماكينة (الثورة) كما أُطلق عليها.. ربما لهذا كانت أيديهم لدنة، مرتعشة في مواجهة مجهول يعرض مستحيلاً..

افتراضات وشائعات طال أمدها، وسمحت بتكون رغبة جامحة لدي العامة في المعرفة، ومن ثم التجريب، ومن ثم الطلب، انتهاءً بالطلب الجنوني الذي لم يقف أمامه قانون أو دين.. خصوصا بعد حروب أعقبت دناءةً وانحطاطا غير مسبوقين للبشرية؛ أفقدا

الجميع الثقة في أي إيمان أو أي دين، حتى حدثت الحركة الشبيهة بالزلازل، عندما أصبحت الماكينة الثورة على كل لسان..

وجد العالم المنهك نفسه بعد عشرات الحروب، وملايين القتلى في المائة عام الأخيرة، غير قادر على مزيد من المقاومة. وأصبح أمام أمر واقع؛ هو آلاف المصانع بها آلاف من ذلك الوحش الغامض، ينتج نسخاً أفضل، وعشرات الملايين ممن تبقوا من البشر ينظرون إلي شركة العباقرة واختراعها؛ على أنه الأمل الوحيد، والثورة الوحيدة التي يمكن الإيمان بها؛ ثورة تحل المشكلة من جذورها، وإن كان ثمن الحل التحول إلى قاتل..

وصلت سوسن إلى الباب، بعد نحو خمس ساعات من الانتظار في الصف، وعشرات من أحلام اليقظة حول ما قرأته على شبكة الإنترنت عن تاريخ الشركة، والمصنع، وماكينته الجهنمية، وقرارها بتجريبها بعد ست سنوات من المقاومة، وبعد أن تخطى الأمر احتمالها..

وصلت سوسن لمسؤول خدمة عملاء (آلي) منحها ابتسامة وورقة تحمل رقماً، وطلب منها تسجيل بياناتها على الموقع الإليكتروني، وإدخال رقمها الذي نالته لتحديد الموعد. سألت سوسن الآلي عن

الموعد المتوقع لتقوم بدورها المطلوب قبيل استخدام الماكينة، فرد الآلي بعد ثوان معدودة:

- طبقا لحسابات الطلب، والبيانات، والمنطقة، والمقاطعة، وعدد الطلبات المقدمة.. الوقت المتوقع للحضور بالنسخة القديمة خلال: "واحد سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام، بالإضافة لأسبوع كمساحة مرونة لتغير الموعد.. يجب التذكير بأن الدفع يكون قبل شهر من استخدام الماكينة، ولا يرد المبلغ في حالة إلغاء الموعد".

(٢)

فقدت الكرة الأرضية تقريباً ثلاثة أرباع سكانها في حروب المائة عام الأخيرة. لم يعد هناك كفاية من العمالة للزراعة أو الإنتاج أو الصناعة، أو حتى استمرار الحروب. ربما لذلك توقفت آلة القتل؛ حيث لم تعد تجد من تقتله.

الحلول التقليدية: كإجبار البشر على زيادة النسل، وزيادة فترات العمل، لم تعد تجدي، ووجب البحث عن حلول فوق التقليدية، وخارج كل صناديق المنطق، لإنقاذ البشرية من تبعات النقص الحاد فيمن يؤدون المهن الخدمية، والمهن التي تتطلب جهداً، والمهن التي لا تحتاج إلى عقول عبقرية، كتلك التي اخترعت

آلات القتل، الفيروسات والغازات القاتلة، وألقتها في الحروب الكيميائية والبيولوجية، التي أتت على أغلب ساكني الكوكب.
في نهاية الأمر، وجد العباقرة أنفسهم وحدهم، بدون من ينفذون أفكارهم، بعد أن قتلوهم بها.
بعد اختراع الماكينة الثورة -كما أطلق عليها ما تبقى من الإعلام- والتي لم تحل مشكلة نقص البشر، بقدر ما قدمت حلاً غير تقليدي، لتجنب وجود المجانين الذين دفعوا العالم إلى نهايته من قبل وأدى لأن تنتظر سوسن دورها لاستخدامه، بعد نحو السنة .
توصل العباقرة إلى اختراع آخر، ينتظر ماجد دوره لاستخدامه في عيادة الطبيب، ممنياً نفسه بالمبلغ الخرافي الذي ينتظره، فور أن يستخرج ذلك الاختراع منه، مما سيزيد القوة العاملة الخادمة للبشرية واحداً أو أكثر.
مهما كان المبلغ، فسيكون بداية حياة جديدة لماجد، الذي يحتاج بشدة لاستخدام المال؛ لحجز ميعاد مع نفس شركة العباقرة، ولكن على الجهاز الأول؛ لإعادة حياته إلى مسارها الصحيح، بعد خطأ اختياره لزوجته الحالية، رغم سنوات الحب التي

أفضت لزواج دام لبضعة أشهر. ولكنه أضحى تضيعا للوقت بعد أن اكتشف أن زوجته لا تنجب.

تحمل ماجد الزحام، وأسابيع الانتظار، حتى جلس منتظراً دوره في عيادة أحد الأطباء المعتمدين لهذه المهمة التي أصبحت مصدر استثمار لكل من رأى أهوال الحرب، ومر على ما بعدها من تغيرات في المجتمعات التي لم تعد كما كانت...

أصبحت خاوية.. حتى بدأ الناس في عرض الأموال على بعضهم البعض؛ لمجرد تبادل الحديث، والقبلات، والحب، والجنس.. الأبشع أن أحدا لم يقبل بالمال في مقابل سلع فاقدة القيمة، وبشر فاقدي الرغبة في مثل تلك السلع؛ فأفلست كل الشركات التي قامت على هذا الاستثمار.. وأصبح المناخ خصبا لتكاثر شيء واحد فقط..

الأشباح..

تحمل ماجد الزحام، وسيتحمل المزيد من الانتظار عندما ينتهي من هذا الأمر، ويبدأ مرحلة التغير في الماكينة الثورة.. ربما ستمنحه الماكينة التي ينتظرها الآن المال، وتمنح البشر عاملاً أو

فنياً أو مزارعاً جديداً في موقف يربح فيه الجميع.. لكن الماكينة الثورة في المرحلة التالية ستمنحه أملاً..

- رقم ٦٨٨ المهندس ماجد خير الدين خضور... تفضل بالدخول..

وكان هذا هو نداء المرحلة الأولى..

(٣)

تقف سوسن أمام الماكينة للمرة الأولى، المرة الأصعب كما أخبرها الجميع على مدار سنة كاملة، انتظرت فيها تلك اللحظة.. الفناء الذي تقف فيه، لو وُصف من نظرة شخص يراه من أعلى، لشابه ذلك الوصف وصف أكبر تجمع للبشر في فناء واسع بمقاييس العالم، منذ نحو مائتي عام، عندما كان البشر يجتمعون بالملايين لثورة أو احتفال أو حتى طقس ديني. الآن هو مشهد طبيعي يتكرر أربعة أيام في الأسبوع، هي أيام عمل ماكينات النُسَخ المعدّلة، التي تنتشر في مناطق متسعة خارج المدن التي تبقت بعد الحرب الكبرى..

سوسن قرأت كتاب التعليمات جيداً، واستمعت إلى الكثير من النصائح، من عشرات من أصدقائها الذين استعملوا هذه الماكينة.

بل إن بعضهم كان من إنتاج الماكينة الثورة وبعدّة نسخ. تضع يدها في الفتحة لأخذ خزعة جلدية لتمييز بصمتها الجينية، ثم تختار خيار الإدخال "كتابة"؛ كي لا يستشعر ذكاء الماكينة الاصطناعي نبرة البكاء الطبيعية لأي شخص يستخدم الماكينة للمرة الأولى فتوقف العملية.

خيار الإنهاء خيار غير مطروح، خاصة وأن سوسن قد نفذت المطلوب بالفعل والماكينة تضاعف السعر حال كانت الجثة متعفنة، أو مضى على موتها أكثر من شهر.

بدأت الماكينة في العمل، وظهر على الشاشة الكبيرة السؤال الأول:

- سبب طلب النسخة المعدلة؟

نظرت سوسن إلى الجوال الملقى إلى جوارها، وارتعشت يداها، وجال في ذهنها أن تمضي لتدفن من قتلت ولا تتابع، لكن فكرة أن الأون قد فات ثبتت يدها قليلاً فكتبت:

- عناد مستمر بدون سبب منطقي إلا الرغبة في لفت الانتباه، تدني في لغة الحوار لا يتناسب مع العمر، غباء وتأخر دراسي، استغباء متواصل، كسل في تحصيل المعلومة، تصرفات

عدوانية متصاعدة، ابتكار في الأذى الجسدي والنفسي لكل من حوله وعيوب جسدية متعددة أخطرها قد يؤثر على التزاوج والقدرة على الإنجاب..

لم تدر سوسن كيف استطاعت أن تكون بهذه الصراحة..؟ خاصة وأنها تتحدث عن ابنها الذي عاشت معه قرابة التسع سنوات. كانت تراه أملاً، وجزءً منها، ولم تتخيل أن تسجل عيوبه ونقائصه، التي كانت أمها تحكي لها عن جدتها أنهن كن يعشقن نواقص أبنائهن، ويتغنين بكمالهم، ويخفين عيوبهم، بل ويرفضن التحدث عنها.. قطعت خواطرها صوت الماكينة:

- نسبة قبول العيوب كسبب للاستبدال ٧٠%، طلب الاستبدال مقبول ويمكن المضي للخطوة التالية.. عند الرغبة في الاستمرار اضغط التالي..

ضغطت سوسن التالي، فظهر على الشاشة سؤال:

- عمر المستبدل..؟

- كتبت سوسن: ٨ سنوات وستة أشهر..

هنا لم تتمالك دمعها.... ثمان سنوات، منها سنوات كان لا يستطيع فعل شيء إلا بمساعدتها، الأكل، الشرب، قضاء

الحاجة... تساءلت للحظة عما إذا كانت النسخة المعدلة من ابنها، ستستجلب نفس ذكريات مشهده وهو يلتقم صدرها ليشبع جوعه، أو مرَّات تغير حفاضاته أو أول كلمة نطقها، أو ضحكاته التي عشقتها. أفاقت سوسن على إنذار الماكينة، لها لأنها تأخرت في كتابة التحسينات المطلوبة، وأنه تبقى لها على الماكينة ثمان دقائق فقط .أعادت الماكينة السؤال الأخير:

- التحسينات المطلوبة..؟

هل ستجعل تلك التحسينات حياتها أفضل..؟ هل إنهاء حياة ابنها الوحيد واستبداله بنسخة محسنة حسب الطلب سيمنحها سكينة، يعالج علاقتها بابنها..؟ هل استبداله سيزيح مخاوفها من احتمالات أن يكبر مجرماً، أو عاقاً أو أنانياً أو عقيماً أو مختلاً..؟

بالتأكيد اقتنعت سوسن بذلك، وإلا لما كانت هنا أمام الماكينة الثورة، تطلب نسخة معدلة من ابنها الذي لم يعد مناسبا لحياتها التي ترغب فيها.. كتبت سوسن بعد أن اصبحت أقوى -عندما فكرت في تلك الاحتمالات التي دعمتها الكثير من الإشارات التي رأتها في ابنها خلال سنواته القليلة السابقة-

- معالجة ما سبق..

فكرت قليلاً، ولمرة أخيرة.. لقد منحته كل الفرص، حتى عندما قررت استبداله بعد تفكير طويل جداً، واتخذت الخطوة الأولى في طابور حجز الميعاد. منحت لنفسها فرصة أخرى للتفكير، عندما انتظرت قرابة العام قبل الإقدام على الاستبدال، الذي أصبح موضة العالم، وأسهل عملية ضمنها العلم عبر شركة العباقرة التي ابتكرت الماكينة الثورة.

لكن الأمور في السنة التالية زادت من سيء لأسوأ، فلم يعد هناك أي مفر مما فعلته وتنهيه الآن.. تذكرت سوسن أنه يمكنها طلب بعض الكماليات الإضافية فأضافت بسرعة: عينان خضراوان.

ضغطت زر المتابعة، فظهرت علامة رفض الطلب الأخير، لعدم توافقه مع البصمة الجينية.

لم تصدق سوسن نفسها وهي تزيل طلبها الأخير، وتترك الماكينة تقوم بالمعالجة النهائية قبل الخطوة الأخيرة التي يجب عليها أن تقوم بها. لوهلة استنكرت عدم تصديقها، لأن عدم التصديق وأنت تقف أمام ماكينة يستخدمها الملايين يوميا؛ لطلب نسخ معدلة بصفات أخلاقية وخِلقِية يختارونها بأنفسهم لأبنائهم

وآبائهم ولأقربائهم وأصدقائهم، أو حتى حيواناتهم الأليفة يبدوا مبتذلاً إلى حد ما..

طلبت الماكينة إضافة أي ملاحظات فكتبت سوسن وسط دموعها التي لم تدر لها سببا: "هل يمكن أن تُمسخ غريزة حب الأبناء، والعلاقات التي اعتدناها بين البشر عند القدرة على استبدالهم بنسخ محسنة؟" هنا صدرت إشارة عنيفة من الماكينة وظهرت عبارة: "تم تعيين ملاحظة محظورة، وتم حذف الملاحظة" ثم أشارت لانتهاء العملية، وانفتح على إثر ذلك باب ضخم منزلق في أسفل الماكينة. وظهرت بضعة أسطر تحفظها سوسن جيدا، تشرح شروط الاستبدال التي وضعها العباقرة مخترعو الماكينة الثورة، ويحفظها الملايين.. لا لشيء إلا لأنهم لن يلعبوا تلك اللعبة الثورية إلا بتلك القواعد:

١- يجب قتل النسخة القديمة، وإحضارها عند الاستبدال لوضعها في الماكينة.

٢- يراعى في القتل ألا يكون عنيفاً، وعند إتلاف أجزاء من النسخة القديمة، يضاف إلى سعر الاستبدال رسوم تحددها الماكينة إلكترونيا.

٣- في حالة الجثث التي قتلت منذ ما يزيد عن الثلاثين يوماً، يضاف إلى سعر الاستبدال رسوم تحددها الماكينة إلكترونيا.
٤- لا يسمح بالاستبدال لنفس النسخة أكثر من ثلاث مرات.
٥- توضع النسخة القديمة في البوابة التي تفتح عن انتهاء الإجراءات.
٦- استلام النسخة الجديدة، يكون خلال ثلاثة أيام عمل، ويتم بالبصمة الجينية لطالب الاستبدال.
ضغطت سوسن على علامة موافق على الشروط، ثم أدخلت كود التخفيض الذي حصلت عليه من صديقتها التي استبدلت أسرتها بالكامل مرتين، وأخرجت جثة ابنها من الجوال الذي تحمله ووضعتها في البوابة التي أغلقت..
عندها ظهر على الشاشة جملة "عملية ناجحة".

(٤)

لهجة الطبيب المحترفة، الآمرة بالتركيز، أجبرت ماجد على عصر ذهنه، لتذكر ذلك الحلم. كان يعرف بحكم القواعد أنه يملك نصف ساعة فقط، وإلا أنهى الطبيب الجلسة، وتم حظره ووضعه على

قائمة المشكوك فيهم لمرحلة قد تمتد لسنوات، يُمنع فيها من التقدم لعرض ما يملك للبيع.

ضغط ماجد على ذهنه بعنف، حتى أنه بدأ يشعر بالصداع، ومع كل الأقطاب الموصلة برأسه الذي تم حلق شعره منذ لحظات، بدا الموقف سرياليا، خاصة لو عُرِفَ المنتج المتوقع من هذه العملية..

- بدأنا نحصل على نتيجة.. مزيد من التركيز.

تصاعد صوت ماجد نفسه -في ذهنه- يروي ما يراه، كنوع من الحيل المساعدة التي نصحه بها الأصدقاء مراراً قبل الذهاب لعرض ما يُمكن أن يستخرجه الطبيب بجهازه المبتكر من عالم ماجد الخفي الذي يطارده.. ترددت القصة في ذهنه بقليل من الارتباك:

- أقف أمام النافذة كل يوم محاولاً تكوين صورة للدخان المنتشر في كل مكان، محاولات عنيفة للتركيز، لا تؤدي إلا لتحرك الدخان ليشغل مساحة أصغر.. أصوات الرصاص تنتشر في كل مكان، الصراخ مريع، لكني لا أرى إلا دخاناً فقط.

- موجة أخرى من التركيز، منحتني بضعة ألوان ودماءً تسري حول قدمي، لم أقتل أحداً في الحرب، لكنني كنت قريباً جداً، وشاهدتُ الكثير..

الطبيب يصفق بيده بإيقاع مدروس، ويضغط بضعة أزرار على الماكينة، ثم يلتفت إلى ماجد قائلاً بصوت أقل توتراً:

- بدأت أحصل على تجسد... مزيد من التركيز لنصل إلى المرحلة التالية..

نصيحة كل من استخرجوا من مخاوفهم وأبشع ما يعانون، فرصا استثمارية ربحوا فيها الكثير من المال، وربح المجتمع إضافة لقوته العاملة كانت: أن يركز في الهدف الذي يريد من أجله المال، في مرحلة بدايات تجسد المخاوف. كان الأمر سهلاً على ماجد، فرغبته في التخلص سريعاً من زوجته واستبدالها بنسخة معدلة تنجب، وتتبادل معه أطراف الحديث عندما يرغب في الحديث، والكثير من التحسينات الأخرى التي تدرب على حجب تفاصيلها عن ذهنه كيلاً يراها الطبيب، على شاشة تجسيد الأفكار الملحقة بجهازه؛ لخصوصيتها.

تدرب ماجد فقط على استخدام الشعور المقزز الناتج من تذكر هذه التفاصيل الخاصة، في إذكاء جذوة رغبته في استبدال زوجته - بعد قتل نسختها القديمة طبعاً-.

حديث الطبيب الحماسي عن اقترابهم من المرحلة الأخير، أزكى حماس ماجد، الذي بدأ يتخيل نفسه بعد قتل نسخة زوجته الحالية مع نسخة أخرى.

ذات الفتاة التي أحبها، ولكن كما يريد هو، لا كما تكون هي. لم يشعر للحظة بتأنيب الضمير لأن هذا ما كانت ستفعله هي – أو أي بشري في تلك الحقبة – لو وُضع في مكانه..

بل ربما فكرت زوجته في أن تستبدله فعلاً، الفارق أنها لا تمتلك –مثله- ما تبيعه لتوفير ثمن الاستبدال. الطبيب يواصل العبث بأزرار الجهاز، ويسحب قفصاً زجاجياً شفافاً متصلاً بكثير من الأسلاك:

- مرحلة التجسد الأخير.. لم يبق الكثير.. هيا

زيادة تركيز ماجد جعلت الدخان والألوان تتصور وجهاً.. ارتجافه ماجد الأخيرة أتت بذلك الشبح الذي يزوره يومياً، منذ انتهاء خدمته بالحرب، إلى مجال بصره الآن. الشبح يبدوا حزيناً

منهكاً، ليس شريراً أو بشعاً كالأشباح التي حكى له عنها بعض أصدقائه، ممن كانوا في موقفه قبله مع طبيبه، أو طبيب آخر يساعدهم على تجسيد أشباحهم.

مائة عام من الحرب، والويلات والقتل استبدلت الملايين الذين أتت الحرب على حياتهم، بملايين الأشباح التي تطارد من تبقى حياً، حتى غدا من لا تطارده الأشباح، في مرتبة الأولياء..

الشبح يقترب من ماجد وينظر إليه ككل يوم ويقول:

- ماذا تريد..؟

صرخ ماجد:

- بل ماذا تريد أنت..؟ أنت من يطاردني منذ سنوات بلا أي هدف..

ظهر الرعب على الشبح وصرخ:

- أنت من كوَنَنِي هذه المرة..... لا ابتعد عني...

كانت ملايين الأشباح تهيم في عالمها، وعالمنا يحتضر من قلة الأيدي العاملة، وعليه فلم يكن هناك أكثر عبقرية من تجسيدهم لتعويض هذا النقص.. فكرة خارج أي صندوق ممكن، ولا

تحتاج إلا لعقول كعقول العباقرة الذين أنتجوا ماكينة تجسيد الأشباح، كما أنتجوا قبلها ماكينة الاستبدال...

- انتهينا يا ماجد..

كان هذا هو الطبيب، وكان صوته إيذاناً لماجد بالخروج من حالة التركيز، والعودة إلى عالم البشر، ليجد شبحا متجسداً، يتخبط في جداران القفص الزجاجي.

ضغط الطبيب على بضعة أزرار فسكن الشبح فجأة، وتصاعد في القفص الزجاجي دخان أصفر اللون، وظهرت تحاليل قدرات الشبح على شاشة الجهاز، فمط الطبيب شفتيه بإحباط لا يفوقه إلا إحباط ماجد وقال:

- الشبح المُستَحضَرِ من النوع الغبي، الذي يصلح للأعمال الكتابية فقط، أو العمل كعمالة غير ماهرة..

سجل الطبيب بضع ملاحظات ووقع على الشيك الخاص بماجد وناوله إياه..

ذهن ماجد مازال يعمل قائلاً: رغم توقعي للكثير من المال، إلا أن ما سأحصل عليه طبقا لجدول أسعار الأشباح يكفي لعملية الاستبدال. لن يتبقى الكثير من المال، إلا ربما لشراء طاولة

جديدة للصالون، أو عشاء فاخر مع زوجتي بعد استبدالها.. أنا أحب هذا العالم حقا.....

أسكت صوت الطبيب ذهن ماجد عندما قال:

- التالي..

تمت...

٥. مؤنس ودوائره

(١)

ثلاثة أيام تفصل مؤنس عن محاضرته المخططة في أثينا. التحضير لم يكن مشكلة أبدًا بالنسبة لمؤنس، فالمحتوى الذي يقدمه متكرر وعائم بشكل لا يصدق رغم نجاحه المضمون. كل ما يحتاج إليه أن يعيد صياغة محاضراته السابقة بشكل مختلف مع مجموعة من الجمل البراقة وبعض من أقوال الحكماء والنشاطات الفارغة التي يحبها الحضور الذين أتوا ليمرحوا.. خلطة تنميته البشرية مكتملة تقوم على قاعدة "بقدر زيادة "الهلس" زادت جاذبية التدريب مهما كان عنوانه برّاقًا". بدأ مؤنس التحضير برسم دائرة سماها دائرة الحكمة ثم قاطع معها دائرة أخرى سماها دائرة البؤس، ثم تخيل أن دائرة أخرى تسمى دائرة العطاء فرسمها وأضاف بعدها دائرة رابعة سماها دائرة الأنانية.. تأمل دوائره المداخلة ثم قرر أن الخلطة يجب أن تحتوى دائرة أخيرة ويجب أن يكون اسمها

الحب. ستكون المحاضرة عن نقطة التقاء الدوائر الخمسة لكن المعضلة العظمى التي الآن هي اسم تلك المنطقة..
وهو ببساطة لا يعرف..

(٢)

يُصرّ مؤنس في محاضراته أن الصدفة كلام فارغ، وأنه "لا مكان للصدفة في امتزاج الطاقة الإيجابية بالرؤية المستقبلية المبدعة لرواد الأعمال وموجهي الحياة..". ظاهرٌ يوحي بالعمق والحكمة بو باطن هو "هذي مقنع" كما لا يعلم أحد إلا ندرة قد تحاول البحث الموضوعي تدرب على التعامل معهم بسياسة الصوت العالي أو "الطبل البلدي" كما يطلق مؤنس عليها.
الصدفة واقع، وما تستحضره من ذكريات وأحداث هو ما قد يصبغها بقناع عمق زائف أو حتى صبغة الماورائيات. لم يزر ذلك اليقين المعاكس ذهن مؤنس حتى قاطعت رسالة "ريما" التي وصلته على لوحه الرقمي جملة في مشهد في حلقة المسلسل الذي يشاهده منتظراً طائرته الأولى من أمريكا إلى بريطانيا في طريقه لليونان.

"منذ ألاف السنين كنت أعذب روحًا في الجحيم، أنت تعرف أنني أتفنن في ابتكار وسائل تعذيب تليق بكوني الشيطان.. كنت أعذبه يوميًا لمئات السنين، وكان يصرخ طلبًا للرحمة وأن يتوقف العذاب ولو للحظات، وبالطبع لم آبه لأي من صرخاته.. حتى جاء يوم وأصبت بالملل.. لم أذهب إليه لبضعة أيام، وعندما عدت إليه لتعذيبه بعد تلك الفترة وجدته يبكي قبل أن أبدأ ويصرخ فيّ "أرجوك.. لا تتركني وحدي مرة أخرى، وجودي بدون ما تفعله كان أقسى علي من العذاب الذي تسومني إياه كل يوم".. تأملته للحظات ثم تابعت ما أفعل"

من مسلسل لوسيفر - الموسم الثالث

قاطعته رسالة "ريما" المشهد بعد غياب لبضعة أشهر.. هي فقط تقول "كيف الحال..؟". مؤنس يعلم أنها ستطلب شيئًا بعد "كيف الحال..؟" من منطلق يقينها أنها تسيطر عليه بدائرة الحب التي منحها إياها، الدائرة التي تقبل كلاهما مراده منها وإلّم يفصح عنه.. وضعته "ريما" في منطقة رمادية اختارتها له وتعود إليها بعد كل خذلان في بحثها عن حب يناسبها خارج دائرة حب مؤنس الافتراضي لها والذي لا تريده ولا تحترمه لكنه مفيد في بعض

الأحيان. منطقة قبِلها هو متطلعًا للوصول لما تخلّقت تلك الدائرة في نفسه من أجله.

مؤنس هذه المرة مع عودتها عقب فترة غيابها الأخيرة لم يبك كالمعذّب، ولم يستجد ألا تغيب عنه ثانية وإلّم يكن قد نال بعد ما يريده..

ومسح الرسالة.

(٣)

عرف مؤنس في طائرته الأولى متجها لمحاضرته أن السيدة التي ستجاوره هي أجمل من رأى رغم سنوات عمرها التي تجاوزت الخمسين ببضع سنوات. الوجه مجرد آلة طباعة لتفاصيل ما ترسمه عليه الروح من رونقها أو خبثها، والعين تنال فرصة واحدة فقط في نظرتها الأولى لتدرك فيها تلك ظل الروح على الملامح. مؤنس مُنح نظرته الأولى فرأى تفاصيل روح المرأة التي ستجاوره في الطائرة طوال عشر ساعات هي المسافة بين "نيو أورلينز" و"لندن" في طريقه إلى أثينا. أيقن صحة إحساسه مع تجاذبه أطراف الحديث معها، ثم نسجت أطراف الحديث حوارًا عرف فيه أنها راهبة ومدرسة في مدرسة الكنيسة الكاثوليكية، تعيش وحيدة

في "ساكرامنتو - أمريكا" وتتجه لبلدها "برشلونة" لحضور زفاف أختها. حديثها وأراءها المتزنة ورؤيتها لتطور علاقتها بالرب وعلاقتها بطلابها وثقافتها المتسعة ألقى في نفسه معنى جديدًا للحكمة جعله يتجاهل لمرة من المرات القليلة رغبته الفطرية في الإدلاء بدلو كلام فارغ لا يعدو عن سفسطة معنى بسيط ويستمع إليها فقط بكل جوارحه.

(٤)

"البؤس دائرة مكتملة.. فالمجتمع يصب بؤسًا فيمن فيه، ومحيطك من البؤساء يصب الكثير في بؤسك لدفعك للتوحد معه في بؤسه أو على الأقل مشاركته فيه.. لا يوجد بائس يبحث عن حل، لأن الوصول لمرحلة البؤس يولّد شعور الضحية الذي يتحول لإدمان..
البؤس يتوحد لأن مصادره متشابهة.. كمثال: الندم أو الإحباط.. القرارات الخاطئة التي تؤدي إلى اختيارات يتطلع الإنسان إلى خالفها بفطرته المتطلعة لما لا يملك فيتوهم أنها اختيارات خاطئة"

هل كرر مؤنس كلمة بؤس كثيرًا في مقدمة محاضرته التي كتبها أثناء انتظاره للقطار المتجه لفندقه في أثينا..؟ تساءل للحظات ثم

طوى صفحة مفكرته وفتح هاتفه المحمول باحثًا عن اسم الراهبة في صفحات التواصل الاجتماعي..

حديثها عما تحاول فعله وإيصاله للأطفال التي تدرس لهم الإسبانية واللاتينية والإنجليزية.. إحباطها من تغيّر مبدأ التعليم إلى عملية حشو تفاصيل لا تُشكل شخصية المتعلم بقدر ما تزيده بؤسًا وبعدًا عن الهدف الأسمى للتعلم.. رأيها في فكرة التعلّم وكيف أنه الفارق الجوهري بيننا وبين الملائكة والشياطين أوقع بينهما رابطًا لم يتخيله.. رابطٌ تعاظم مع حديثها عن نظرتها للدين والإيمان والرب.. رابط أسال دمعة خفية من عينه عندا استأذنته لتبارك طعامها قبل أن تتناوله حتى أنه ظل يتأمل وجهها الهادئ أثناء نومها في صمت. أُخذ مؤنس بحديثها حتى أنه نسي أن يسألها عن كيفية التواصل معها بعد أن احتضنها مودعًا في مطار لندن حيث افترقا..

لم يكن يعرف إلا اسمها "جورجينا بيرس" وأنها جذبته بدائرة أخرى لم يكن يتوقع أنها حقيقية.. دائرة العطاء التي قالت عنها أن "الأمم والحضارات تُبنى بوجود ذلك الجيل الراغب والمستمتع بفكرة العطاء بدون مقابل..".

وعليه فإن البؤس قد يكون اختيارًا..
هكذا قالت "جورجينا"

(٥)

ظاهر مؤنس أنه شخص ناجح، ذو دائرة اجتماعية متسعة، يحبه الكثيرون ويستمتعون بمحاوراته وقدرته على المزاح. أقنع نفسه بأنه شخصية قيادية غير مسبوقة بعد قراءة كتاب "السر" الذي فتح عينيه على الحل السحري لكل مشاكل البشرية في توائم تام مع استراتيجية "الاستسهال" التي يتبناها مؤنس فيما يقدم.. لكن ما يمر به الآن مختلف.

بقدر ما آمن مؤنس بأن الابتعاد عن "السلبيين" كما يصفهم هو "جوهر السعادة الذاتية والاتزان النفسي" كما كان يحاول إقناع مريديه من طلبته، بقدر ما أيقن بأن التعميم الذي يعتنقه يخلق دائرة أنانية غير محدودة. دائرة تشتهي من المشاعر والبشر جوانبهم المشرقة أو التي يريدها فقط، أيًا كان مستوى قربهم من صانع الدائرة.

إيمان مؤنس بتلك المبادئ ما كان ليضر أحدًا لولا أنه اختار أن ينال من دائرة الحب جانبها الممتع فقط نخاض عشرات

التجارب التي تطلع فيها لرعشة الحب الأولى بدون أي التزامات.
نهل مؤنس من علاقات متعدد كثيرًا من المتع التي أنهاها بِطُرقٍ غريبة أحيانًا حتي أنه أنهى أحد علاقاته لمجرد بعد مكان سكن فتاته عنه دائرة سكنه..

لذلك تعلق بـ"ريما" التي لم تتجاوب معه إلا في حدود ما تريد هي فلم "تَبْرُم على مَبْرُومِه" كما يقول العامة، وربما أيضًا لذلك أحس بكثير من الانهزام لأنها تنال دومًا ما تريد منه ثم تختفي دون أي إشعار ولا تعود إلا عندما تكون في حاجة لخدمة جديدة مستغلة معرفتها – التي افترضها – بغرضه من تلك العلاقة..

نهض فزِعًا من قيلولته في فندقه الذي يقع في حي متوسط بجوار وسط مدينة أثينا على حلم ربطه فورًا بدائرة الحب التي كان يفكر فيها قبيل نومه مباشرة.. المحاضرة بعد غد، ولم ينته من تحضيرها بعد.. المشكلة يزداد تيهًا مع كل تطور في الخوض في محتوياتها التي بدأها بفكرة "دوائر الحياة، لكنها انتهت به إلى خوض كثير من الحقائق مما جعله مرتبكًا بحق..

يستخدم مؤنس في العادة أحلامه المحورة بتصرف في محاضراته كنوع من بث الأمل، لكن الحلم الذي هاجمه الآن وضعه أمام

حقيقة لا يستطيع وضعها في محاضرته التي تعتمد على كثير من الفنتازيا المطعمة بقليل جدا من الحقائق.. و"كثير من الحقائق يفسد الطبخة لذلك يجب تجنب الحديث عن الخبرات السيئة لأنها لا تصلح كمادة خام لما نبيعه" كما نصحه أحد معلميه في شركة سابقة. حلمه الذي خرج منه للتو لا يمكن حكيه إلا ربما لشخص في نقاء "جورجينا" التي ستتفهم كونه خاطئًا يبحث عن سكينة الاتساق مع الذات خاصة إن فهمت مضمون الحلم.. تخيلها معه كي يكتب في مفكرته ما يمكن أن يخبرها به يومًا:

" يراودني هذ الحلم الغريب منذ فترة.. أقف أمام "ريما" وأنا أعلم ما أريم منها للبدء في خطة الخروج من تلك العلاقة، أقف موقنًا أننا نتعامل مع بعض بذات الأسلوب.. فهي تريد حلب ما أستطيع منحه لها بعلاقاتي وخدماتي غير المحدودة وأنا أريدها على الفراش.. في اللحظة التالية من حديثي معها أفقد السيطرة وأقضي حاجتي على سروالي فجأة، لكني للعجب لا ألتفت للأمر وأتابع حديثي معها ثم أنتقل لأخرى وآخرين.. الأعجب أنني أعرف أن سروالي يحوى الكثير مما قضيته فيه لكني أتحرك بشكل عادي جدا من وجه لآخر.."

ستخبرني "جورجينا" أن ذلك اعتراف ضمني بطبيعة حياتي التي اخترتها، اعتراف يستحق أن يضاف لدائرة الأنانية أو يخلق دائرة أخرى قد تكون السادسة..

دائرة الانحطاط..

(٦)

"البؤس، الحب، العطاء، الحكمة، الأنانية.. قد لا تكون الدوائر كلها من مصدر واحد هو ذاتك لكن كما ترون الخمسة دوائر يجب أن نتقاطع وقد تظهر دائرة سادسة أيضا وهي الانحطاط كامتداد لدائرة الأنانية عندما تسمو بوضاعتها.. فلنتوقف لساعة واحدة لتناول الغذاء ثم نعود لختام محاضرتنا الذي سنعرف فيه اسم تلك المنطقة التي نتقاطع فيها "دوائر الحياة"".

(٧)

- أنت بربري..

يقولها ذلك الرجل البائس في اليوم التالي للمحاضرة وأنا أصعد إلى مزار الأكروبوليس الشهير على جبله الأشهر في أثينا فأتوقف قليلا لأنظر إليه.. بائس يمسك بآلة تشبه العود لكن ذراعها أكثر طولًا، ويعزف عليها لحنًا ما لقاء بضع سنتات يلقيها إليه العابرون.

ملابسه قذرة، رائحته متسقة تمامًا مع ملابسه وقدميه السوداوين وأظافره المتكسرة وصوته المشروخ الذي هتكه الدخان والخمر. أنظر إليه ثم أتأمل الأشجار المتصاعدة مع الطريق حتى تلتقي بالسماء الصافية في أفق تقف فيه ثلاث فتيات في عمر الطفولة يرتدين قميصًا ورديا عليه شعار مدرسة ما ويجمعون معلومات من السياح يبدوا أنها لمشروع دراسي يقومون به. الرجل لاحظ وقوفي فأوقف عزفه وبصق على الأرض ثم أشار إلى صارخًا بصوت مرتفع وإنجليزية بشعة:

- نعم أنا أحدثك أنت... أنت بربري..

أنا بربري..؟ ربما يكون على حق. لو كان يقصد وصفًا على مستوى اللون فأنا أسمر أصلع الرأس تمتد بطني أمامي بكرش صغير وهذا قد يكون تصور ما بقي له من عقل عن البرابرة.. أما إن كان يقصد الوصف السلوكي فأنا كاذبٌ مدع علمٍ وإن حملت عشرات الشهادات العلمية والعالمية ومئات الشهادات مجهولة المصدر في التنمية البشرية التي أحاول أن أثبت بها دائرة حكمتي. ابتسمت عندما تذكرت صديقي في المدرسة الثانوية الذي تلقى ما

نعتبره في مصر سبابا ويُذكر فيه "عضو لأمه" في سبة من زميل آخر فنظر زميلي الأول في بلاهة ورد:

- لا..

فقط "لا".. وهذا ما سأفعله.. لكني ضحكت قبلها ضحكة طويلة ساخرة، وبصقت أنا الآخر على الأرض وقلت :

- لا..

(٨)

" القاعدة هي الانطفاء وليس التوهج، هذا عكس ما كنت سأقوله لو ألقيت تلك المحاضرة منذ بضعة أيام. توهجي كان انطفاءً لي ولآخرين، أنا الآن منطفئ وإن ظهرت متوهجًا. وكان حظ محاضرتكم أن جاءت في المرحلة الانتقالية نحو محاولة نجاة من توهجي المزيف.. تتقاطع دوائر الحياة الخمسة، لأن الحب، والعطاء، والأنانية، والحكمة والبؤس عندما تتداخل في حياة ما يجب أن تتقاطع فيما بينها في منطقة مشتركة.. حقيقة هندسية أعرفها كمهندس سابق، لكني بصفتي التي تعاقدتم معي لأحاضركم بها أجزم أنني لا أعرف.. لا أعرف ما يمكن أن أدعو مكان ذلك الالتقاء.

ربما تستطيع جورجينا إجابتي، لكني لا أستطيع الوصول إليها.. ربما يتمكن أحدكم من حله.."

شاهد مؤنس فيديو ختام المحاضرة الذي أرسله أحد الطلاب إليه مرفقًا إياها برسالة قصيرة مفادها أنها كانت أكثر المحضرات إمتاعًا في حياته. قاطعت خواطره جملة شريف الذي تطوع بتوصيله من المطار لمنزله في القاهرة:

- إيه يا عم الكلام الكبير دا..؟ أنت قلبت عميق ولا إيه..؟

ابتسم مؤنس ولم يعلق، فتابع شريف مربتًا على مقود سيارته الجديدة:

- إمبارح استلمت عزيزة، وجه في دماغي حاجة كدا وأنا سايقها وراجع من اسكندرية.. أول مرة أسوق جيب، ودا خلاني حاسس إني متميز. تخيل بقة لما تآخد منصب أو تبقى غني ممكن تحس بإيه..؟ ممكن تحط دا في محاضرة من محاضراتك الجاية.. تفتكر ممكن يحس بإيه لما يسوق عربية تخليه مرتفع عن بقيت البشر..؟

ابتسم مؤنس ولم يعدل وضعية رأسه على مسند الكرسي مغمضًا عينيه..

- هايحس إنه قاعد في كرسي السواق، ماسك الدركسيون وبيسوق عربية.. بلاش أفورة.

تمت...

٦. رُؤى

(١) الفهم

تم ابتذال فكرة أن كل انسان يحمل في تكوينه الخير والشر، وأن تصرفات البشري الفرد تنبع من سيطرة أحد الجانبين على الآخر بشكل لا يصدق. ما يؤلم أمثالي أن ابتذال العبارة بتكرار سماعها على ألسن العامة نزع منها حقيقة كونها حالة رآها البعض رؤية عين اليقين.

لا أتحدث عن معايشة البشر للحكم على غلبة أحد الجانبين على الآخر، بل عن رؤية صريحة لتداخل الخير والشر في أرواح البشر. رؤية عبر قدرة منحت لي - وربما لغيري - تُمكن من النفاذ إلى عمق سحيق واختلاس النظر. جلُّ أمثالي لا يتحدثون عما يستطيعون رؤيته، لأنهم لا يفهمون ما يرون فيتجاهلونه معتقدين أنه أضغاث أحلام.. أما أنا فقد فهمت.. وقررت أن أتحدث اليوم..

شرح تلك النوعية من القدرات أصعب من تخيّل أي شخص، لأن جزءً كبيراً من الفهم يكون عن طريق قدرة المتلقي على تجسيد ما يتم شرحه، وهو مستحيل في حالتنا تلك..

(٢) الرؤية

كان من الحتمي أن يقودني ما أملك إلى المرض النفسي، فمن يطلعه الله على سرائر البشر لا مكان له بين العقلاء، ولم أخرجٍ عن هذا الطبيعي، وأصبت بالصرع في البداية، ولم يستطع طبيبٌ أن يعالج ما بي لأنه رفض أن يصدق سبب المرض من الأساس. عرفت أنني وحدي في مواجهة ما أملك، فداومت على محاولة طرق باب السيطرة على رؤاي حتى فُتح لي باب السيطرة عليها تدريجياً فوصلت إلى سيطرة جزئية أستطيع بها مبدئياً أن أصف ما أملك.

أول محاولة لشرح ما أستطيع رؤيته كانت في الحافلة العامة لصديقي الأوحد.. شعرت أنني أرغب بحق في أن أُخرج ذلك الأمر من نفسي ولو ظنني مجنوناً. كنت أستقل الحافلة يومياً تقريباً في طريقي إلى الجامعة، حتى أن المحصلين والسائقين أصبحوا يعرفونني بشكل شخصي، وكانت الحافلة مجالا خارق

المثالية للتدريب على فهم رؤاي نظرا للكم الهائل من أنماط البشر الذين كنت التقي بهم فيها.

بدأت الحديث مع صديقي كما كان مدرس اللغة العربية يشرح لنا كيف نكتب موضوع التعبير، خلفية تاريخية ثم دخول في الموضوع.. أنا موقن أنه لم يعد يتابع ما أقول بعد بضعة جملة.. لكن من يهتم..؟

كانت الرؤى تتكاثر في ذهني منذ سنوات بعيدة.. استغرق الأمر ما يربوا عن السنة لأفهم أن ما أتلصص لمشاهدته متعلق بسريرة من أراهم ولو لم أعرفهم، وخمس سنوات أخرى لأستطيع التفريق بين من تألقت سريرته بالنقاء، ومن سلك سبيل خائنة الأرواح التي تشبه في قانون الاستبصار خائنة الأعين الفاضحة للمتظاهر بعكس ما يبطن.

سيطرة الجانب المظلم على نفس أحدهم كان انعكاسه غريباً، إذ يتجسد أمامي كأسوأ مخاوفي أنا. منطقية ذلك فهمتها بعد سنوات، فالشر لا يكون شراً إلا لو ارتبط ببعثرته على المحيطين بمن يحمله واختاره.. لا يوجد شرير منعزل بعبارة أخرى.. كانوا يبعثرون شرهم عليّ، فكان الحكم على غَلَبَةِ الشر لدى من أراهم ينعكس

عليّ أنا فيما أشاهده، ثم يطاردني في أحلامي بعد ذلك. أنا ممن لا يخافون بسهولة، لكنني كنت أرتعد من مشهد واحد فقط يظهر في أحلامي ويأتي من مكان ما. أسوأ مخاوفي كانوا أولئك الرجال الذين تحمل ملامحهم تشوهات الزوائد الغير منتظمة. رأيت مثلاً قريبا في المتحولين من بحارة سفينة الهولندي الطائر (Flying Dutchman) في فيلم قراصنة الكاريبي الجزئيين الثاني والثالث، بيد أن صوري لم تكن بزوائد سمكية وإنما زوائد بيولوجية غير منظمة تبدوا وكأنها نَمَت على وجوههم ورؤوسهم ربما كعلامات شرور لم يكفها أن تُسجل في صحيفة ذنوبهم لدى الله، فظهرت في خِلقَتِهم، ثم جاءوا ليطاردوني في أحلامي، والأسوأ انهم صاروا بعد ذلك يلبون نداء رؤيتي لشر داخل أحدهم فيحضرون.

(٣) اللغز

لماذا اخترت المشاهدة..؟ وكأن لي خيارٌ في ذلك...!!!!

التذمر يستوجب وجود أمر مزعج، وتذمري على عدم وجود خيار لي فيما أرى لم يكن بسبب ذلك الجانب المرعب الذي

يطاردني.. تعودت على شياطيني وتعايشت معها وتقبلت رعبها. ألمي العنيف كان عند رؤيتي لسريرة يغلب فيها الجانب النقي..
ارتبط النقاء بالضوء، الضوء في ذاته أمر رائع، لكن الحقيقة أن الضوء المتداخل إن سُلِّطَ على عيني انسان بشكل منتظم لفترة، كفيل أن يحول حياته جحيماً، أما لو سلط بشكل متقطع بانتظام فهو الدرك الأسفل من جهنم. نحتاج إلى الظلامِ بنفسِ قدر احتياجنا للضوء، وأنا كنت أرى الاثنين، أحدها تجسيدٌ لأبشع مخاوفي، والآخر ضوءٌ ينبع من بؤرة ساطعة كأنها مصدر مياه في نافورة تقذف نوراً بدلاً من الماء. شلالات ضوئية ثابته تنساب في كل مكان بلون أبيض يتأرجح بين الانطفاء والتألق. ازدياد التألق واندفاع مسارات جديدة في الشلال الضوئي كان يعني على الأرجح غلبة صفات مميزة في سريرة حامل/حاملة الضوء.. ربما كانت الملائكية، الإيمان، النقاء، الصدق.. لا أدري.. لكنني بعد معاناة عنيفة مع شلالات الضوء البيضاء أصبحت أستطيع تفسير ما أرى، وأحيانا وضع نمط له، وازداد النمط ثباتاً وتماسكا مع ازدياد تلصصي إلى سرائر من أرى.
حتى جاء اللغز مع ظهورها..

(٤) الخيط الأرجواني

مع ثقتي المتزايدة في سيطرتي على جوانب موهبتي، بدأت خيالات التألّه تغزوا نفسي.. شاب في الثالثة والعشرين يطّلع على سرائر من تقع عينيه عليهم فيعرف أعمق ما يخفونه عن أقرب الناس إليهم، بدأً من أولية غلبة الخير أو الشر وصولاً إلى رؤية جوانب من الرغبات الدفينة خلف أسوار الحضارة الزائفة.

أحد شخصيات رواية من روايات الأب الروحي لجيل مواليد الثمانينيات وما بعدها الراحل د. أحمد خالد توفيق - "إيجور تاركوفيسكي" على ما أتذكر - كان يستطيع فعل شيء مشابه، لكن الأمر مع إيجور كان تخاطراً عقلياً بحتاً، أما أنا فشعور داخلي وثقت في نتائجه وما يريني إياه وأتقنت التحكم فيه ودراسة أنماط ما أراه عبره حتى تغير كل شيء عندما رأيت ذلك الشلال الأرجواني داخل فتاة وقفت قريباً منها في حافلة الصباح إلى الكلية.

اللون الغالب للضوء في العادة كان الأبيض، كانت الومضات الأرجوانية الخافتة تتناثر في بعض الأحيان هنا وهناك بين من يحملون أضواء النقاء البيضاء، لكنها - ولأول مرة - كانت فيضاً

من فيوض بؤرة الضوء المتألقة بشكل غير عادي مع فتاة الحافلة التي عرفت لاحقاً أنها تدرس في ذات جامعتي وكليتي.

انطبع في ذهني كل تفاصيلها، طولها، ما كانت ترتديه، حتى لون صبغة الأظافر الوردي الهادئ لم يفارق ذهني حتى اليوم كلما تذكرتها. لم يكن تذكر تفاصيل من أتلصص عليهم مألوفاً، فمن يطلع على السرائر تستوي في عينيه القوالب الظاهرة للناس، لهذا كان الأمر مختلفاً وغير مسبوق معها.

ما أملك تحول إلى ما قبل رؤية مايا - وهو اسمها - وما بعد رؤيتها. كانت الصور مع الجميع تتداعى أمام عيني بالشكل الذي اعتدته، وتنقلب رأساً على عقب متى رأيتها سائرة في مكان تصادف وجودنا فيه معاً، في الحافلة، في مطعم الكلية، في إحدى المحاضرات التي نحضرها معاً.. تحدثت معها حديثا عابراً مرة أو اثنتين ولم يَخف عني نظرة ارتياب مرت على عينيها مع تغير ملامح وجهي أثناء حديثنا المقتضب.. لم أخبرها طبعا أن اللون الأرجواني تزايد معها حتى صار غالباً على كل ما ينبعث من بؤرة روحها.. بل عوضاً عن ذلك قررت تجنبها بعد أشهر من شبه مطاردتها لمحاولة فهم ما يحدث.

ظننت الأمر حباً، وأن ذلك اللون يشير إلى مشاعر ما بداخلي نحوها.. عزوت الأمر لذلك بعد قراري الهروب من رؤيتها، وبعد ذلك لسنوات بعد خروجي من الكلية وانقطاعي عما أعرف وعمن أعرف.. المشكلة أن أمرا ما بداخلي لم يكن مقتنعاً بهذا التفسير، ربما لأن عقلي لم يؤمن أبدا بالحب بصورته الرومانسية التي يتعارف عليها القوم.. لا مجال لإيمان بالحب مع من عرف البشر كما عرفتهم. كل حبٍ زائل، وكل شعور له دورة حياة تنتهي بموت الشعور.. لا يوجد شعور خالد أبد الدهر، بل يأتي الخلود المزعوم من حالات تقمص يعيش فيها البشر ليقنعوا أنفسهم باحتمال اقترابهم من مستوى الملائكة أو الشياطين.
وأنا من البشر.. فربما كان ما كان مع "مايا" مجرد حالة تقمص..

(٥) الجنون

انتهى كل ذلك الآن بعد عشرين عاماً من بدايته. لم يعد لموهبتي القديمة أي وجود أو تأثير في حياتي وأنا أطرق أبواب الأربعين الآن. ربما لأنها كانت مجرد وهم، أو كانت هبة لفترةٍ ونُزعت مني لسبب ما. لم أعد أرى نوافير ضوء أو أشباحاً تحمل زوائد في

وجوهها. لم يتبق من عالمي الافتراضي إلا ذكرياتٌ تومض مع كل متشابه مما كان في هذا العالم.

عندما تُدرب نفسك لسنوات على أدوات لمواجهة حقيقة تمر بها، غافلاً عن تلك اللحظة التي قد تفقد فيها تلك الحقيقة، لأنها لم تكن حقيقة، لأنه لا يوجد حقيقة مطلقة.. تتحول انسانيتك إلى مسخ بدرجة ما.

دربت نفسي مثلا على تأخير رد فعلي تجاه أي حدث لتجنب إظهار رد فعل غريب لمشهد أراه في عمق نفس ما ولا يظهر على السطح.. فصار رد فعلي الآن متأخراً بشكل كارثي، عشرات من لحظات الحسم أظهرت رد فعل بعد فواتها بسنوات، أو في أضعف الظروف بعد أيام.. بتعبير آخر أدق بعد فوات الأوان.. كنت أبكي على فقدان أناس أحببتهم بعد سنوات من فقدهم، أسبُ وألعن في مشاجرات انتهت منذ أسابيع، وأصيغ جملاً مفحمة لحوارات قُضي أمرها، وتحملت تبعات صمتي فيها..

الارتباك الشعوري كذلك كان من الأثار الدائمة التي لازلت أعاني منها.. فتدريبي لنفسي على حيادية الشعور للاستمتاع بالغوص في السرائر أفقدني مذاق المشاعر، ثم أفقدني القدرة على

فهم مذاق المشاعر أصلا.. فلم أعد أعرف كيف الحب..؟ وكيف الحزن.. ما هو الاستمتاع..؟ وكيف تكون النشوة..؟
عشت وأعيش ذلك الجحيم لأنني حاولت اكساب نفسي درعاً واقيا يحميني من الجنون بسبب موهبة افترضت دوامها أو وجودها من الأصل، فانتهي بي الأمر مجنوناً يدفعه ما اكتسبه لمزيد من الجنون.. استغرب أنني لم أدخل في نفق الإدمان حتى الآن..؟ لكنه قادم بلاشك..

(٦) أرض ثابتة

ممارسة الحياة أم التسكع الأبدي في بُعدِ الخيال..؟ اخترت الخيال لفترة طويلة فتركني هو لسبب ما. الآن أنا أمارس الحياة.. اعتنق ماديتها التي لا تسمح أبدا بتلك اللذة التي تشعر بها في الروح عندما تتطلع لذلك العالم الخفي الآخر أو تمر عبره. ثم لحظات اشتياق لعالم أعرف أنني لم أعد أستطيع ولوجه مرة أخرى. لابد أن يخترع اللغويون مصطلحاً آخر غير الاشتياق والافتقاد لما نريد العودة له ويرفضنا هو..
هل لمحطات الحافلات خاصية مميزة تجتذب هذه الأفكار..؟ كما كانت ملجأً لي من قبل لممارسة تلصصي. الغياب في خواطري لم

يعد خيارا مطروحاً الآن لأنني لست وحدي، وإنما مع مجموعة من البشر ممن يُطلقُ عليهم أصدقاء، خارج بوابة السينما بعد حضور عرض سخيف لفيلم أكثر سخفاً. تتفاوت درجة معرفتي بهؤلاء فمنهم من كان معي في عمل سابق، وبعضهم يجمعني به العمل الحالي، وآخرون لا أعرفهم إلا عن طريق كونهم أصدقاء للنوع الأول أو الثاني.

صخب غير عادي، وتداخل أصواتٍ لا يصدق، مع عمود إنارة يرتعش نوره، وقطرات من ماء تتساقط من مظلة السينما الممتدة على الطريق لبضعة أمتار لتغطي مدخل المبنى. اللوحة أوسع من ذلك.. فهناك عاشقان يعبران الطريق وقد أحاط الذكر كتف أنثاه بذراعه، حافلة صغير تعبر الطريق بسرعة لتنثر بعض الماء فيطاردها كلب أجرب بنباح لا يتناسب مع جسده الهزيل، فيثير ذلك رعب رجل اتخذ من سورٍ متهالك مرحاضاً يتبول عليه. رجل عجوز يقرأ جريدة إلى جوارنا على محطة الحافلة ويرمقنا بين الفينة والفينة بنظرة مسطحة.. عشراتٌ من البشر يعبرون الطريق ويستقلون حافلة المنصورة التي تقف على المحطة القريبة منّا.. عديد من مخلوقات الله تتفاعل في لحظة واحدة شرد فيها

شخص معتوه مثلي وتأملهم.. ثم تساءل عن تلك اللحظة. هل تم ترتيب تلك اللوحة بهذه الطريقة..؟ هل وُضِعَ جدول زمني دقيق لتواجد كل ما سبق في اللحظة المذكورة..؟ هل يصنف ذلك كعلاقة..؟ هل هناك ما يربط ما أراه مع بلايين اللوحات الأخرى في بلايين الأماكن المختلفة..؟ بل.. هل يرتبط كل هذا بتناغم الكون ومسارات الكواكب والمجرات، ومولد واحتراق النجوم..؟ ومن يمكن أن يشاهد كل تلك اللوحات وينسقها..؟ الإجابة كانت ومضة أرجوانية عنيفة أغشت بصري للحظات فأغلقت عيني ثم فتحتها على فتاة من المجموعة التي ترافقنا تبتسم وتقول:

- هل أعجبك الفيلم..؟

هل هو سؤال ختام التأمل.. لا أعتقد لأنني ابتسمت وتأملت وجهها للحظات.. هل يعقل هذا..؟

- هل تقابلنا من قبل..؟

الرد كان غريبا، فابتسمت مرتبكة وقالت

- ربما.. لا أذكر أنت تعرف الزهايمر..

أنا أعاني العديد من الأمراض النفسية والعضوية.. الزهايمر ليس أحدها، أنا لا أملك في الحقيقة إلا رصيد ذكرياتي التي لا أستطيع أن أنساها حتى لو أردت ذلك ومهما مر عليها من زمن. لوحتي ليست ومضة مكانية من حاضر يتناغم.. لوحتي نظرة في ماض أحاول ربط أشلائه بعضها ببعض. أذكر كل إيماءة، والتفاتة وجملة وحدث.. شرط أن يعني لي شيئاً، وأنا ظللت عقداً من الزمن يعني لي أي شيء كل شيء..

- هل كنتي في كلية ال××××××..؟ هل كنت وقتها تقطنين في ××××××..؟ هل كنت تستقلين حافلة رقم ××..؟

لقد كنت أقف فوق رأسك تقريبا كل يوم وأتلصص. أنت "مايا" وأنا من كنت أراقبك لأفهم، ولم أفهم.. وظللت أتساءل حتى يومي هذا عن ذلك القوس الأرجواني الذي كنت أراه داخلك ولم أعد أستطيع رؤيته الآن لكنني أتحدث إليك شخصياً.. لم تصدق ما يحدث، ولم أصدق أنا الآخر.. لكننا مجّدنا الصدفة بالتعارف، والحديث والإضافة على صفحة التواصل الاجتماعي في اليوم التالي.. عادت "مايا" إلى المنزل تحمل صدفة

لن تنساها، وعدت أنا إلى المنزل بلا أي إجابات سوى أنني رأيتها من جديد... وربما خيط.

(٧) وختاماً

- أنت تعرف "حسّان الأخرس منين..؟"

كانت هذه الرسالة الأولى التي تلقيتها منها في الصباح التالي. أعاني حالة ثلاثة أرباع النوم منذ بدأت أدرك أن الإنسان يجب أن ينام أصلا. دوماً لدي ربع مستيقظ من عقلي يعي ما يحدث ويفكر في أحداث متفرقة وأنا نائم، وربعي المستيقظ كان معها الليلة. أما عن تسميته ربع فهو تيمناً بمن يمتلكون ربعاً معطوباً في أذهانهم.. في الحقيقة أنا أملك ربعاً واحداً سلمياً.

الأخرس هو زوج صديقة أختي المقربة. أختي التي قررت منذ عشر سنوات أن تهاجر إلى الولايات المتحدة واندمجت في ماكينة الحياة هناك حتى أضحت الحياة بالنسبة لها في أي مكان آخر مستحيلة. صديقة أختي المقربة - كما عَرَفَتْ أختي لاحقاً - كانت جارتنا في حيّنا السكني في القاهرة قبيل أن يقرر والدها أن يقوم بنفس خطوة أختي منذ عشرين عاماً هي ابنه خالة "مايا" التي بدأت تفقد النطق من هول تعدد الصدف الغريبة مع

شخص يعرفها منذ خمسة عشر عاما بالنسبة له، وخمسة عشر ساعة بالنسبة لها..

صخب غير عادي، وتداخل أصواتٍ لا يصدق، مع عمود إنارة يرتعش نوره، وقطرات من ماء تتساقط من مظلة السينما الممتدة على الطريق لبضعة أمتار لتغطي مدخل المبنى. عاشقان يعبران الطريق وقد أحاط الذكر كتف أنثاه بذراعه، حافلة صغير تعبر الطريق بسرعة لتنثر بعض الماء ليطاردها كلب أجرب بنباح لا يتناسب مع جسده الهزيل، فيثير ذلك رعب رجل اتخذ من سورٍ متهالك مرحاضاً يتبول عليه. رجل عجوز يقرأ جريدة إلى جوارنا على محطة الحافلة ويرمق بين الفينة والفينة تجمعنا أمام السينما متسائلا عن أولئك الشباب ناقصي التربية الذين يسمح لهم أهلهم بالتأخر خارج منازلهم حتى التاسعة مساءً، خاصة وأن بينهم فتيات.. عشراتٌ من البشر يعبرون الطريق ويستقلون حافلة المنصورة التي تقف على المحطة القريبة منّا.. عديد من مخلوقات الله تتفاعل في لحظة قابلت فيها فتاة كنت أراقبها لأفسر رؤية لما تحمله في سريرتها والذي تلصصت لرؤيته من خلال

موهبة حملتها لفترة وفقدتها بلا سبب. تلك الفتاة ابنة خالة جارة لنا ستكون صديقة أختي المقربة بعد خمسة عشر عاماً..

هل تم ترتيب تلك اللوحة بهذه الطريقة..؟ هل هناك ما يربط ما أراه مع بلايين اللوحات الأخرى، والصدف الأخرى، في بلايين الأماكن المختلفة..؟ هل هي صدفة من الأصل..؟ هل يوجد ما يسمى بالصدفة..؟ هل الضوء الأرجواني كان يعني أن طريقانا سيتقابل يوما..؟ هل يرتبط كل هذا بتناغم الكون ومسارات الكواكب والمجرات، ومولد واحتراق النجوم..؟

بدا النسق من رؤيا.. وانتهى بـــ.....لا أدري إلام انتهي..؟ ربما عشرات الأسئلة، إلا أننا اتفقنا أن هناك تمجيد إضافي مطلوب لتلك الصدفة.. التي لم تكن بالنسبة لي مجرد صدفة. انتزعتني من خواطري عندما قالت لي:

- سعدت جدا بالتعرف عليك..

تمت...

٧. خالتي

(١)

أكثر من تعلق قلبي بهنَّ من خالاتي كانت تروي ذات يوم عن رجل سكن يومًا في شارع الوداد - الشارع الضيق الذي يعيشون فيه وعشت فيه لأعوام. لم تكن تروي الكثير من التفاصيل، في الحقيقة كانت تحكي عنه جملةً واحدةً لا أكثر، لكنها علقت بذهني كعشرات الجمل التي سمعتها منها حتى توفاها الله.

كانت تُمسك بالبطة وتحشي الحبوب في فمها وتُخبرني عن عم "عباس":

- كان كل يوم بيقف على السطح عندهم، ويصرّخ من قلبه..

"يصرّخ من قلبه"..؟ لم أفهم تحديدًا ما معني تلك الجملة حتى ما بعد ذلك بسنوات عندما نزلت يومًا لأكون في حديقة الكلية تمام السادسة صباحًا، رغم أن موعدي معها كان في الثامنة والنصف. كنت متأكداً أنني لن أقابلها لأكثر من عشر دقائق، تسعة منهم سأظل صامتًا أستمع إليها وهي تُخبرني كيف يقتلها

الذنب لأنها أولًا أحبتني، ثم ثانيًا سمحت لنفسها بمقابلتي وعقلها والتزامها يرفضان هذا الحب رغم تحكمه فيها. معادلة مجنونة غير قابلة للحل، تعتبرُ فيها مشاعرها نحوي ذنبٌ لا يغتفر، لأنها تُفضي بها إلى شهوة قُربٍ جسدي وروحي لم تعتد عليها ولم تفهمها فرفضتها. تَعاظمَ شعور الذنب لديها عندما وافقت على مقابلتي التي طلبتُها بدون أدنى فكرة عما سأقوله لها. قتلها شعور الذنب يوميًا فحاولت أن تلغي المقابلة أكثر من مرة، ثم عادت وطلبتها بدموع لم أفهم مغزاها إلا عندما عرفت منها أنها هربت من مشاعرها نحوي إلى شخصٍ آخر قبله عقلها. شخصٌ طرق الباب الرسمي لخطبتها، فقبلت، لكنها لم تستطع مقاومة أن تراني، لأنها تريد ذلك بشدةٍ تفوق أحيانا شعورها بالذنب..

بقدر ما كان الأمر معقدًا من جانبها، كان بسيطًا من جانبي. لم أعرف معنى الحب ولم أؤمن به إلا معها، لدرجة أنني كنت على استعداد – ما دمت سأراها - لتقبل انتظارها لساعتين ونصف الساعة لتخبرني أنها رغم حبها لي لا تستطيع أن تبني ارتباطا بي. كانت في كل جزءٍ من روحي لدرجة أنني مَنطَقْتُ هراء

اعتقادها بأن "الاشتهاء والعشق اللذان يسلبان القلب ممن سواه، قد يأتيان على غرض الحياة التي خلقنا الله من أجله"..
وبقدر ما كانت عباراتها معقدة لم أفهمها.. بقدر ما كان رد فعلي بسيطًا.. أعطيتها سوارًا كنت قد اشتريته لها ومضيت راغبًا بحق في أن "أصرّخ من قلبي".

(٢)

المحشي الذي تُعدّه أمي وخالتي يندرج بكل جدارة واستحقاق تحت بند الأساطير، سألتُ خالتي يومًا وأنا ارتكب جريمة في حق وزني وكوليسترولي، وانتهك طبق المحاشي المنوعة الذي أعدته لي:

- هو أنتي بتحطي إيه في المحشي يخليه حلو كدا..؟

تناولت باذنجانةً محشيةً بكل رزانة، وناولتها لحفيدها العاري تمامًا كعادته - رغم أنه في السادسة من العمر - ليأكلها، وردت عليّ بنفس الرزانة:

- لو قلت لك مش هاتكاله..

تسمّرت للحظة وأنا أتذكر عبارة "أنتوني هوبكنز" في دور هانيبال ليكتر في الجزء الثالث "Red Dragon" عندما طبخ لضيوفه - فرقة الموسيقي الملكية - عازف الكمان غير المؤهل، وأجاب

نفس الإجابة تحديدًا عندما سألتهُ إحدى ضيوفه عن مصدر ذلك اللحم الرائع. انتهى تسمري وتجاهلتُ الإجابة متابعًا الاستمتاع بالمحشي مجهول المقادير، ثم قبّلتها وعدتُ للمنزل مشيًا كالعادة.

الصدمة السابقة في رد خالتي، تكررت بعدها ببضعة أيام في عملي الأول بعد التخرج. كنت متزنًا وقتها.. عدا أنني كنت أخط اسم فتاتي التي فقدتها للأبد بأساليب مختلفة على كل أوراقي. أخطه بشكل لا يمكن لأحد أن يقرأه، وأستمتع جدا بكوني الوحيد الذي يعرف ما هو هذا النقش الغريب الذي يشبه التعاويذ. سمّيتُها الأولى كما ستظل دائما.. كنت وقتها على السطح غير العميق للمرض النفسي فقط.

مدير القسم كان منفعلًا يومها كالعادة، وأخذ يصرخ في الهاتف، وفي من معه من البشر داخل مكتبه أن شركتنا الموقرة صاحبة الأربعين عامًا قد قامت في الأساس على تخوين كل من فيها والشك في تصرفاتهم..

- لما بنعين حد، بنعينه على أساس إنه حرامي، ومرتشي وقواد كمان، وفيه جزء في مرتباتكم اسمه بدل سب وقذف.. أنتم كلكم حرامية.. اتصرفوا بقة على هذا الأساس.

الخمسيني الحكيم لم يتصرف نكالتي ويواري ذلك المكون القذر من مواد الحشو الذي يحشوا بها موظفيه كل يوم، كما وارت هي ذلك المكون المجهول الذي جعل من المحشي أسطوريا. لهذا أكملتُ الطعام ولم أستطع أن استمر لشهرين مع تلك الشركة التي تظهر للجميع على أنها أسطورية أيضاً.. كلنا أصابع محشي بشكل ما..

(٣)

لا أتذكر لماذا كانت المشاجرة مع زوجتي هذه المرة.. لكنني في كل مرة أتشاجر معها أخرج من إطار وسبب المشاجرة وأتذكر فقط الأساس الذي بنينا عليه هذه الزيجة. زواج بسيط عبارة عن ظاهرين رائعين لشخصين عرفا بعضهما البعض لفترة، ثم قررا فجأة أن ما يشعران به حب. قررت أنا في لحظة ما في مسار زواجنا البائس أن ابتعد رعبًا من شبح الأولى الذي يطاردني مع كل نَفَس، بيد أنني عُدتُ لأُنفّذ حُكم الزواج لمجرد أنني أخبرت

من أصبحت زوجتي أنني أحمل مشاعرًا ما لها. المميز في هذا الزواج أنه لا يصمد أمام المشاكل الحقيقة، وكل مشاكل زواجنا كانت حقيقية، ربما لذلك لم أعد أتذكر الأسباب، وربما لذلك كنت أرى النهاية قادمة وإن طال الأمر قليلًا بالقصور الذاتي.

لماذا تركتني تلك البلهاء الأولى..؟ لم أكن أنتوي أو أطلب علاقة غير شرعية بالتأكيد، فلم أفعلها يوما. لو لم يُبن الزواج على اشتهاء متكامل.. جسدي وروحي فعلام يبنى يا..... بلهاء.

- إنت سرحان في إيه أنا مش بأكلمك دلوقتي..؟

كانت هذه هي زوجتي مؤقتًا.. نظرتُ إليها، ثم فعلت ما أفعله عادة.. فتحت الباب وبعد بضع دقائق كنت أسمع كلامًا آخر بصوت آخر محبب..

- ومزعقتش فيها ليها.. متنشف شوية يلا كدا ومتباقش خـــ××××××، إديها على دماغها، وفي الآخر هاتنسى وتِترِجع.

ضحكتُ كما لم أضحك من قبل، فما أعتبره أنا من أبجديات الرجولة، تعتبره خالتي خ××××لنة. على أي حال.. أنا لن أصرخ فيها، ولن أضربها، ولن أطردها من البيت.. وسببي المعلن - نصف الحقيقي - هو أنني لا أحب أن أغرس عداوة في نفسها

نحوي، أو أتسبب في جرحها بجملة أو كلمة أو تصرف في غير موضعه. أما سببي الحقيقي فهو أن ذلك لن يغير من النهاية في شيء.. تفسير واهٍ لن يصمد أمام المنطق الكاسح الذي اجتاحني قائلًا:

- يا واد متبقاش زي البرص كدا.. لا بيضر ولا بينفع بس بيربي عداوة في القلوب.. زعّق زي ما أنت عايز ومتغلطش.. بس اتنيل قول أنت عايز إيه.. في الآخر لو شرياك هاتريحك.. إحنا الستات عارفين إن الرجالة عاملة زي الديوك بالضبط. تقعدوا تعملوا دوشة وتصحّوا الناس من النوم وتتنططوا وفي الآخر الفرخة هي اللي بتعمل كل حاجة.. بتبيض وترقد على البيض..

(٤)

- بقة كدا يا واطي..؟ أعيا وأعمل كيماوي ومتسألش على خالتك.. وأنا اللي كنت باقول عليك مبيهونش عليك..

هل أخبرها أنني فقدت الهدف وفقدت كل شيء..؟ هل يكفي ذلك كعذر..؟ هل ستفهم..؟

هناك لحظةٌ يفقد فيها المرء الإيمان بقيمة ما يفعل وتأثيره وجدوى وجوده من الأصل.. في تلك اللحظة يبدأ الدخول إلى هاوية اليقين بعبثية كل جهد يقوم به، والشك في نواياه، وقدراته، بل ما في قيمة ما قدّمه فعليًا.. لا يهم السبب بقدر الأثر، لأن السبب كان متوقعًا. نهاية مأساوية كاشفة لزواج منته وقت أن بدأ، وعداوةٌ كنت أحرِصُ على عدم زرعها ففوجئتُ بها بشكل لا يصدق. ألآم تلك اللحظة لا توصف ولا يفهمها إلا من مر بها، وقد تُفضي بمن يدخلها إلى نفق آخره الموت أو الانتحار أو الجنون أو كره البشر.. ربما ينال بعضًا من كل ذلك فيتحول إلى شخص آخر أو شيء آخر.. كل الاحتمالات واردة، حتى احتمال أن يعبر ويستعيد نفسه، ويعود لمساره الأول مرة أخرى..

كل هذا لا يهم، ما يهم أن خالتي مريضة وأنا لم أكلف نفسي أن أسأل عليها أو أزورها في المستشفى. خانني المحشي، والجُمَل الأسطورية، ووصفي بالخـ××××، والدعم اللامحدود، ولحظات السرحان التي كانت نتأملني فيها وتخبرني أنني أبدوا كمحمود شكوكو وأنا سارح في الملكوت. لم أستطع وأنا أمسك الهاتف

المحمول وأرد عليها على هاتف أمي التي كانت تزورها في المستشفى وحدثتني عبره..

- معلهش يا خالتي أنا عارف أني واطي.. إن شاء الله أجيلك في البيت لما ترجعي بالسلامة.. مش إنتِ خارجة بكرة..؟

(٥)

- اللي بينزل آخر الخط في القطر.. دا يا إما هربان من تار، يا عبيط مش عارف هو رايح فين، أو حد بيقضّي أي وقت في أي حتة والسلام، أو واحد تايه لدرجة إنه نسي هو نازل فين..

الغد لم يأت لأن خالتي ماتت في نفس الليلة، ورأيتها كجثة بلا حياة يعدونها للدفن، وذهبت إلى العمل في اليوم التالي وكأن شيئًا لم يكن.. لكن شيئًا قد كان بالفعل..

الغد لم يأت أبداً.. لأنني كنت في انتظار آخر الخط لأنزل، وأكون انساناً من جديد. انسانٌ يستطيع الفرح، الاستمتاع، التعبير عما يريد.. ربما الحب.. ما زلت في انتظار آخر الخط، إلا لو قررتُ أن أنزل في محطة ما في يوم ما، لكن النزول في محطة ما يتطلب معرفتها.. وخالتي لم تعد هناك لتخبرني.

تمت...

٨. عم عباس الذي مات

لماذا تحوم تلك الذكريات حولي الآن؟

الوضع لا يحتمل أياً من تلك الذكريات الغريبة، التي تأتي بغير ميعاد؛ فأنا في وضعٍ لا أحبه، وبغير إرادتي، وبغير اقتناع بجدوى نتائج ما أفعل. الاقتناع الوحيد في ذهني الآن، هو اقتناع بعبثية العملية الجراحية التي سأجريها بعد قليل، بعد أن يتم تجهيزي، في الغرفة الصغيرة خارج غرفة العمليات؛ والتي تشكل الستائر الخضراء جدرانها، في انتظار وصول الطبيب بعد دقائق.

منذ خمسة وعشرون عاما، كنت في السابعة من العمر، وكنت قد عدت حديثاً من أمريكا؛ حيث كان والدي يُعِدُّ رسالة الدكتوراه في موضوع ما، واضطرتنا عدم القدرة على شراء شقة خاصة، إلى السكن مع جدتي في منزل العائلة، الذي شاركتنا فيه خالاتي؛ كلٌ في دور مستقل من أدوار البيت الأربعة. كان اليوم وقتها هو يوم الثلاثاء، تمام العاشرة مساءً، في إجازة العام الدراسي الأول، الذي أقضيه في القاهرة؛ كمحطة انتظار لسفر آخر للعائلة في الغالب.

فجأة ارتفع صراخ في البيت المجاور، صراخ متصل، هستيري، ينادي على شخص يدعى عباس؛ عباس كان السباك المختص بتسليك مجاري المنطقة، التي تقع في أغوار حدائق القبة، قرب خط القطار، والتي لم يصلها الصرف الصحي بعد، كان عجوزاً متهالكاً، لكنه يملك حيوية شيطانية، تلمع في عينيه، حيوية شابة نضرة لم أفسرها وقتها إلا بأنها؛ دليل على أنه "شبح" كما كنت أُعَرِّف ما لا أفهم إبَّان حياتي في الولايات المتحدة. المهم؛ كان عباس نسخة مصغرة من مجارير المنطقة، لكنها تمشي على قدمين، وتلبس ما لا يمكن تمييزه عن شرائح القاذورات، التي تغطي غرف التفتيش، التي يقضي يومه يكحت جوانبها؛ لا لشيء إلا ليفسح مجالا لمزيدٍ من القاذورات.

جاء الطبيب، وحان الوقت لأدخل إلى غرفة العمليات، وأمنحهم الفرصة لمحاولة تغيير القدر، وفتح سبيل لعلاج ما أعانيه، ويعتبرونه مرضا، وأعتبرهُ هبةً؛ تحميني من مصدرٍ مهولٍ للصدمات (العقم).

قد تنادي امرأة على عباس (بصوت هستيري)، إما لأن غرفة تفتيش شقتها قد امتلأت، فطفحت بقاذورات البيت على

المكان، أو لأنه قد مات. (الصراخ مستمر)، وبدأ الآن يختلط بهرولة أبناء خالاتي-الذين يخطون نحو أول مراحل الرجولة-هرعاً إلى مصدر الصراخ، ثم يعودون بعد نحو نصف الساعة، ليعلنوا أن السبب الثاني هو الذى رَحَ؛ وأن عم عباس قد مات.

-لم أدر وقتها ما الممتع أو الطريف في أن يحظ أحد أبناء خالاتي بعينيه، ويرفع يديه في وضع الحضن المفتوح ممثلاً دور الجثة؟! وقائلاً أنه عباس بعد أن مات. كان هذا أول تعامل لي مع الموت، ومعنى أن شخصاً تمتلئُ عيناه بحيوية الأشباح (كما كنت أسميها) ويذرع شارع الوداد (شارعنا) ذهاباً وإياباً لم يعد هناك، وأنه تحول إلى منظر يشبه ابن خالتي عندما أدى ذلك التعبير الأبله، وأن هذا الشخص سيدفن تحت التراب؛ غدا على أقصى تقدير.

-هل أريد مخدراً كلياً أم نصفياً؟

المخدر الكلي يفقدني السيطرة، وقد لا أعلم ما قد سيصنعون بي، ويفتح كذلك أفق احتمالات أخرى، في منطقة مظلمة، لا أحب الدخول إليها- على مستوى المحسوس والمنطقي- فالأزمة مع ما لا تقتنع به من أفعال تؤديها لأداء واجب المحاولة؛

لإحساسك الخاطئ بالمسؤولية، عن حلم امرأة لا تحبها، ولا تأبه لها؛ في أن تكون أماً لطفل، قد يشب مجرما أو فاسدا أو شاذاً، أو مدمن مخدرات؛ تغري بألا أمنحهم تلك المنطقة العمياء من نفسي.

- المخدر النصفي سيكون حلاً مناسبًا على ما أعتقد.

لم يتوقف عم عباس عن زيارتي في أحلامي، مع لفحة سخونة تلف مجال الحلم، ولم أجد لها تفسيراً حتى الآن، لكن زياراته لم تبدأ فور موته؛ وإنما بعد أن احترقت آمنة..

آمنة، كانت تسكن بدروم منزل جدتي، الذي عشت فيه لثلاث سنوات، في شارع الوداد طفلاً صغيراً مذعوراً، جاء من حي بروكلين في نيويورك، إلى عشوائيات حدائق القبة؛ حيث المجاري الطافحة أبداً، ومع أطفال يلقب أغلبهم بلقب(مجاري) بعد اسمه؛ لمرحه المستمر في برك المجاري.

كان للمنزل بدروم، يقبع أسفله، وتحتل غرفة التفتيش الرئيسية ربعه تقريباً، ولم يفت على جدتي - رحمها الله - أن تستغل المساحة الباقية، لزيادة دخلها؛ فأجَّرته لآمنة.

آمنه، عجوز أعتقد أنها ربت عن المائة عام، صماء، بكماء، عمياء، وذات أطراف تجعدت، وتراكبت أصابعها؛ من فرط التقدم في العمر، أو الجذام أيهما أبشع.

قررت آمنة: أن تتخذ من بدروم منزل جدتي سكناً لها، وقررنا نحن الصبية أن نتخذ منها "أُمِّنا الغولة" التي نرتعب عندما نراها من بعيد، قادمة من مكان ما لم نعرفه أبداً، تحمل كيساً بلاستيكياً متوسط الحجم، ملفوف بإحكام، ويمتلئ بشيء ما لم نعرفه أبداً كذلك.. نختبئ نحن الصبية في مكان ما نراقبها وهي تسير بخطواتها البطيئة نحو سلم البدروم، تنزل إليه خطوة بخطوة حتى تبتلعها الظلمة ثم يتسرب نور "لمبة الجاز" المتهالكة التي لا نعرف كيف تصل إليها آمنة رغم حقيقة أنها لا ترى وتضيئها؟.

ولم نعرف كذلك ما فائدتها لعجوز عمياء؟.

لم نكن نسمع أصواتاً، لكن الرائحة الرهيبة كانت كافية - حتى لِمن اعتادوا المجاري - أن نبتعد عن نافذة البدروم الواقعة أعلى سلم مدخل المنزل.

حاولنا مرة أو مرتين النزول أثناء عدم وجودها، لكن الرائحة مع الظلام والخوف من السقوط في غرفة التفتيش مجهولة المكان

- والتي لا يعرف مكانها إلا عباس، ولم تسقط فيها آمنة بسبب معجزةٍ ما-، بالإضافة لكيانٍ ما يجثمُ على فكرة التواجد هناك ،فقد كان كل ذلك كفيلٌ بأنْ يعودُ بنا من نهاية السلم السفلية جرياً للأعلى.

الممرض يخدر موضعياً مكاناً في أسفل ظهري، وممرض آخر يحمل آثار القهوة على شفتيه، يضرب الحقنة طويلة الإبرة لأشعر بها تلمس مكاناً في عمودي الفقري.. ماذا لو أخطأ ذلك الأبله توجيه الإبرة، وضرب المكان الخطأ..؟ التنميل العنيف يجتاح نصفي الأسفل، والطبيب يربت على وجنتي مشجعاً، ويتناول طقم المشارط من ممرضٍ آخر، ثم يسدل ستاراً على نصفي الأسفل الذي هو موقع العمل، وقاعة الاحتفال الذي سيبدأ بعد قليل.

كانت الزيارة الأولى من عباس الذي مات في يوم جمعة حار جداً، انقطعت فيه الكهرباء، فتوقفت المراوح في منزلنا الذي انتقلنا إليه بعد مرحلة الخروج من بيت جدتي.. أما احتراق البدروم بآمنة فمر عليه نحو ثلاث سنوات.. كانت عائدة من المكان المجهول الذي تذهب إليه صباحاً في التاسعة، وتعود نحو

الخامسة، تجر قدميها صعوداً للخمس درجات في سلم المدخل، ثم هبوطاً لثلاثين درجة حتى الغرفة الوحيدة بلا حمام في بدرومها العزيز. تلك الرحلة التي كنت مهتما بتصويرها يوماً ما لأتأمل رحلة امرأة كسرت بالتأكيد حاجز المائة عام من مجهول.

وهو المكان الذي تذهب إليه كل يوم، ولم أهتم يوماً بمعرفته، إلى مجهول آخر هو بدروم منزل جدتي.. بالتأكيد ثمة تفاصيل تستحق التسجيل في تلك الرحلة وتتطلب مشاهدتها عشرات المرات لقطةً بلقطةٍ وبالتصوير البطيء.

لم تتح لي هذه الفرصة أبداً، لأن أحد أبناء خالتي جاء إلينا ليلة الحريق يهذي ويرتجف، ليخبرنا أن آمنة -تقريباً- أسقطت "لمبة الجاز" على أرضية البدروم، فاندلع الحريق الذي أتي عليها بالكامل، ولم تفلح محاولاتهم في النزول لإنقاذها حتى خمدت النار، وخفتت معها صرخاتها المستمرة، التي ذكرتهم بصرخات زوجة عباس الذي مات قبلها بسنوات..

كنت أتخيل المشهد تصويرياً، غير قادر على إخفاء إحباطي من عدم مشاهدته، وإحباطي الآخر من فقدان فرصة تصوير رحلتها

التي تليق بفيلم تسجيلي لناشيونال جيوغرافيك (National Geographic) عن المومياوات التي تمشي على قدمين.

ابن خالتي الذي حمل جثتها المحترقة مع آخرين بعد خمود النيران ذاتياً لم ينم ليلتها، وظلت يداه ترتجفان، فسهرت معه بحكم أنني أسهر في العادة.. كانت أكثر لحظات السهرة إثارة عندما قال لي: لم تكن قد ماتت بعد، لقد حملناها وصعدنا بها، وكنت بجوار رأسها عندما التفتت إلي وفتحت عينيها البيضاوين تماماً ثم ابتسمت.. تخيل.. آمنة العمياء فتحت عينيها، ونظرت إليَّ تحديداً وكأنها تراني، ثم ابتسمت.. وماتت.

يبدوا أن الممرض الأحمق قد أخطأ بالفعل في ضرب الحقنة، فضربها أعلى مكاناً من المفترض، لأن التنميل بدأ يزحف على قفصي الصدري، ورئتي.. شعرت بذلك عندما حاولت أن أسعل فعجزت.

من الصعب جداً تفسير هذا الأمر، كيف يمكن أن أعجز عن السعال بسبب تخدير نصفي..؟! ربما يرتبط الأمر بتخدر عضلة ما تساعد على انقباض شيء ما في القفص الصدري، لتفرغ ما يفرغه السعال من توتر أو ألم أو حتي برد.

هذه العضلة أصابها ما أصاب ساقي، وأعضاء نصفي الأسفل ،التي لم أعد أشعر بها، إلا كبالون منفوخ غلافه جلدي، ويحتوي ما يحتوي من دماء ، عظام وأعصاب، لا أشعر بوجودها إلا كملء لهذا البالون..

زيارات عم عباس -الذي مات- كانت قصيرة جداً، وتحدث في نهاية النوم لتنتهي باستيقاظي.

الرتابة في أمر عادي، يمكن أن يحوله إلى جهنم بالنسبة لأي إنسان، فمن العادي جداً أن ترى سحنة ميت حاجظ العينين، ينام إلى جوارك ،ثم يلتفت إليك بعينيه الجاحظتين، وجسده المغطى بالقاذورات التي كان يعيش فيها بحكم عمله، ثم يبتسم، ويمد يده السوداء (المغطاة بشرائح طويلة تعلقت به أثناء نشاطه اليومي) تجاهي، لم تصل يده إليَّ أبداً، لأنني كنت أستيقظ قبل أن تصل، لكن تلك اللفحة الساخنة التي تهب علينا، ونحن ننام إلى جوار بعضنا البعض في الحلم كانت مرعبة حقاً، ذلك لأن سخونتها لم تكن كأي سخونة تعرضت لها.

سخونة ذلك اليوم الأول، الذي زارني فيه عباس -الذي مات- عندما كنت في نوم قيلولة، للهرب من حرارة الجو، لم تكن

كهذه السخونة؛ رغم أننا أحسسنا جميعا أننا في جهنم يومها، بل إن السخونة التي شعرت بها؛ عندما سقط البلاستيك المشتعل السائل على يدي، أو عندما لمست جهاز صانع السندويتشات، أو مكواة شعر زوجتي بالخطأ؛ لم يكونوا بهذه الشدة المؤذية التي تكاد تذيب لحمي، ربما لن يفهم ما أصفه إلا آمنة، التي احترقت لنصف ساعة كاملة في غرفة ضيقة.

عباس -الذي مات- في أحلامي، وآمنة التي احترقت؛ تمر بذهني ثنائية لم تفارقني يوماً لسنوات عديدة.

تحدثت عنها يوماً لصديقة كنت أحاول أن أخيفها، فصغتُ رواية عن الساحرة، التي كانت تسكن بيت جدتي ، وتزور مشرحة كلية الطب يومياً؛ لتسرق بقايا الجثث التي أتى عليها طلبة كلية الطب، وتلفها بإحكام، ثم تعود بها بصبر إلى منزلها؛ لتقدمها كقربان لكيانٍ ما لم يعرفه أحد، ليطيل عمرها، لكن ذلك الكيان عاقبها بحرقها حية، لأنها لم تعد قادرة على جلب القرابين له، كما كانت تفعل يومياً لعشرات السنين، في كيس أسود صغير ملفوف بإحكام.

ساحرة يخافها الأطفال، ولا يزورها، ولا يحدثها، ولا يعلم حقيقة ما تفعل؛ إلا مسلك المجارير، ومنظف غرف التفتيش(عباس) الذي يغُبُ عليها كل حين؛ لتنظيف غرفة التفتيش التي تسكن إلى جوارها، ولا تحتاجها لأنها تقضي حاجتها على الأرض؛ كنوع من طقوس السحر الذي تمارسه، والتي لا تكتمل الأيقونة إلا به(عباس) الذي - حسب روايتي - أُخِذَ عليه عهد الصمت؛ وإلا مات رعباً، كأيٍّ من يجرؤ على أن يكسر عهد الصمت على ما تفعل، كما كسرته أنا مع صديقتي.

ترهات، كنت أحاول بها جذب انتباه شخص ما لا أذكره، لكني لم أنس يوما شكل عباس، الذي كان ضيفاً ثقيلاً على منامي يومياً.

الأمر يزداد سوءاً، التنميل يسري عبر عمودي الفقري، إلى أسفل صدري، وتنفسي يزداد صعوبة، يخرج صوتي من فمي خافتاً، منادياً الطبيب المختفي خلف الستارة؛ يعبث في شيء ما ينتمي إلى جسدي، فيلتفت إلي، وينزع قناعه الواقي(مبتسماً) ليطمئنني أن: كل شيء تحت السيطرة.

أشير إلى صدري، فيقطب جبينه، في الوقت الذي تتعلق عيناي بالمشرط الغارق في الدماء، الذي يحمله في يده.

- هل هذه دمائي؟!..... أحاول السيطرة على ذلك الرعب المزدوج، فتلمح عيناي عبر الستارة التي تحركت، كتلة صغيرة غارقة في الدماء، موضوعة على منضدة صغيرة، لمن تنتمي تلك الكتلة؟!

الطبيب الذي يفترض أن يطمئنني قطب جبينه، ثم بدأ الحديث مع طبيب التخدير: آمراً إياه أن يحقنني بشيء ما، ففعل.

الخدر يسري في أطرافي، ويبدوا أنني في طريقي للنوم.

كنت أحارب رؤياي اليومية بالنوم الإرادي-كما كنت أطلق عليه، وإن كان مرهِقاً، ويحتاج الكثير من التدريب الشاق- مكنني من انتزاع نفسي، من عمق نوم ضحل اخترته، واتقنت البقاء فيه، والسيطرة على صعودي وهبوطي إلى عمقه، بعد عناء تمكنت من السيطرة شبه التامة على عالم نومي، ولم أمنح عباس -الذي مات- فرصة إكمال المشهد، وإيصال يده إليَّ ليفعل ما يريد فعله.

اليوم، أنا مُعَرَّضٌ على طاولة العمليات، أن أغرق في نوم لا سيطرة لي عليه، ولم أملك الاعتراض؛ لأن ذلك الممرض اللعين، قد ضرب حقنته في المحلول الساري إلى ذراعي، فبدأت بالفعل أشعر بالخدر.

الطبيب بدا متوتراً حقاً، وأضاف هذا لأبعاد الرعب في الموقف بعداً جديداً؛ فأنا وسط عالم يعبث فيه شخص بمشرطه في جسدي، لسبب لا أقتنع بجدواه، ويخرج جزءً من هذا الجسد، على طاولة أمام عيني.

عالم يخطئ فيه الممرض في حقنة تخدير نصفي-تُمنَحُ للحوامل عند الولادة-فأعجز أنا عن التنفس تقريباً، والسعال نهائياً.

ثم يجبرني حكام هذا العالم القذر؛ على الدخول في نوم لا أسيطر عليه، لأقابل ضيفا ثقيلاً لا أستطيع طرده؛ لأنني لن أستطيع الخروج من النوم كما كنت أستطيع عادة.

ووسط كل هذا، يتوتر المسيطر على هذا العالم، والذي يفترض أنه مصدر اطمئنان، ويبدأ في الصراخ في الجميع.

-من قال أن الرعب مسوخ، وتعاويذ وجثث سائرة؟

عم عباس-الذي مات- عن يميني الآن، يلتفت لي بعينيه الجاحظتين، كما يفعل كل ليلة على مدار عشرين عاما، يبتسم، ويمد يده بقاذوراتها إليَّ، كانت تلك هي اللحظة، التي أستيقظ فيها إراديا، لكني لن أستطيع هذه المرة، وسأكمل المشهد لنهايته، التي قد تكون موتي؛ لأنني كسرت عهد الصمت ربما. لفحة السخونة الجهنمية بدأت، وعرفت الآن أنه لم يكن يمد يده إلي، لكنه كان يشير إلى شيء ما، في الجانب الآخر من جسدي الراقد، ألتفت، لأري آمنة-التي احترقت- تبتسم لي، وتفتح فمها الخالي من الأسنان لتقول: "كنت على حق".

لفحة السخونة تزداد، ولم يكن مصدرها عباس، وإنما آمنة، التي ترقد إلى جوارنا الآن، وتمد يدها المحترقة لتمسك بعنقي، وتضغط بعنفٍ يُعجِزُني عن التنفس.

- هل أعجز عن التنفس بسبب يدها، أم بسبب حقنة التخدير الخاطئة؟ هل أموت هنا أم هناك؟

صوت عباس يتصاعد ليكمل المشهد، وأنا أجاهد لإدخال أي هواء إلى صدري؛ قائلاً: " يا أهلاً بيك في جهنم يا باشا".

انتهى الهواء تماماً، وبدأت لعق الهواء بلساني بحركات عنيفة، لا يساعدني عليها جسدي المخدر تماماً، حاولت تحريك رأسي بعنف لأنزع يدها؛ فانفصلت اليد عن جسد آمنة، لتبقى ضاغطة على عنقي، وأنا راقد أنظر لأعلى، تخور قواي، وأرى في مرآة - دخلت المشهد- وجهي وسط النيران، وقد ازرق تماماً، أما عيناي فميتتان تنظران إلى المجهول.

قالت لي آمنة في نهاية المشهد: "كنت على حق"

في ماذا؟! لا أدري، ربما حكايتي عنهم، أو رغبتي في رؤيتها تحترق، أو رغبتي في رؤية عباس ميتاً، أو ربما إيماني بعبثية العملية، التي انتهت بي مع عباس وآمنة في مشهد قتلاني فيه.....(نهاية مناسبة للجميع)

-أما كيف تمكنت من وصف كل ذلك رغم حقيقة أنني مت مقتولاً في حلمي، أو على طاولة العمليات؟ فالتفسير باختصار هو.....

:مبروك يا جماعة العملية نجحت الحمد لله، وإن شاء الله نبارك لكما على المولود قريباً..

استيقظت على صوت الطبيب، وزوجتي تجلس إلي جواري، يعلوا وجهها القلق.

استيقظت في غرفة نظيفة، وقد أحاطت بنصفي الأسفل الضمادات، ولم يزل أثر التنميل، وإحساس البالون المنفوخة عن نصفي الأسفل.

-ماذا حدث؟ هل لازلت حياً؟

ربت الطبيب على رأسي قائلاً:

حدث أمر طارئ في العمليات، لكنه مرَّ بسلام. ثق أننا سنعاقب الممرض على خطئه، وستعوضك المستشفى؛ بخصم ٥٠% على تكاليف العملية، والحقن المجهري الذي تنوون القيام به.

نقلت عيني بينهما، ثم أعلنت رغبتي في العودة للنوم.

فشل الحقن المجهري كما توقعت، وطلقت زوجتي بعد هذه العملية بنحو العام.

لكن عم عباس -الذي مات- توقف عن زيارتي، لافتاً انتباهي أننا في جهنم معاً؛ لأننا كسرنا عهد الصمت. أما تذكرة العبور، فقد منحتي إياها آمنة عندما قتلتني.

سبع سنوات الآن من هذا الحدث، وأن أفتقدهم جداً.
أو ربما أفتقد جهنم، التي أصبحتُ أحمل تذكرتها.....

تمت...

٩. بقعة ضوء ملتهبة

منظر حجرة متواضعة.. رجل عجوز في نحو السبعين من العمر، يجلس على كرسي متحرك في وضع نصف نائم، ويتدثر ببطانية ثقيلة.. ويبدوا منهكا..

الرجل الزم دارك..
بين الجدران السوداء مدارك..
الزم دارك..

تدخل إلى المكان سيدة في نحو الأربعين من العمر، جميلة.. لكن المعاناة رسمت على وجهها الكثير من الألم وتبدوا مبعثرة الثياب منهكة. السيدة تحمل في يدها مكنسة تنظف بها الغرفة.. تضع السيدة المكنسة جانبًا فجأة ثم تدفع الكرسي المتحرك إلى منتصف أمام المسرح وتجلس أما الرجل..

السيدة لا داعي أن تخرج من بيتك...
الزم دارك.. تأمن عارك..(بسخرية)
أحرق في نارك أشعارك.. لكن..

تتوقف السيدة فجأة عن الكلام وتتلفت حولها (تجد صعوبة في الرؤية) وتنظر طويلا إلى العجوز ثم تضع يديه على عنقها بعد أن يشير الرجل إلى ساعته. الرجل يبدأ في خنقها حتى مرحلة تطرق على يديه فيها فيتركها، تشهق السيدة بعنف، ثم تستعيد تنفسها وتصدر صوت استغراب من فمها، وتعيد الرجل إلى ركن المسرح وتغطيه بالبطانية مرة أخرى.

السيدة ألا تسمح لي بتلك المكالمة..؟ لنا عشر سنين هنا بدون ضوء.. مكالمة واحدة لمصلحة الكهرباء ويضاء المنزل..

العجوز لا..

السيدة إنها مكالمة بسيطة لن تؤذي أحدًا..

العجوز الهواتف مراقبة..

السيدة وما أدراك..؟

العجوز أنا أعلم

السيدة وماذا تعلم...

يضحك العجوز ضحكة طويلة ثم يسترخي على ظهر الكرسي مرة أخرى عائدا للنوم، السيدة تعود للكنس مرة أخرى، فجأة يصدر

صوت فرملة عالية من الخارج يتبعه صوت اصطدام. العجوز ينهض مفزوعا والسيدة تفتح النافذة وتلقى نظرة إلى الخارج

العجوز لا.. لا.. أغلقي النافذة..

السيدة (بسعادة) إنه رجل.. لا.. بل شاب.. (تهندم نفسها بأداء بسيط)

العجوز قلت لا.. لا أحد هناك..

السيدة ها هو قادم أخيرًا سنجد من يؤنس وحدتنا. (لنفسها) ومن يدرى لعله يستطيع أن يذهب ليخبر مصلحة الكهرباء بشكوانا لتعيد لنا الضوء..

العجوز أغلقي النافذة.. إني أشعر بهوائها يمزق صدري بألف سيف..

السيدة (تغلق النافذة) إننا نحتاجه...

العجوز لسنا في حاجة لأحد...

السيدة نحتاج الضوء...

العجوز قلتِ ذلك من عشر سنين حين جاء ذلك الشخص.

السيدة وماذا قلت أنت..؟

العجوز قلت كما أقول اليوم.. لسنا بحاجة إلى أحد..

السيدة وأقولها الآن ثانية.. (يبدأ صوت الطرق على الباب) نحتاج الضوء...

العجوز لا فارق عندي..

الشاب (من الخارج) هل من أحد هنا...؟

السيدة لا فارق عندك أنت لأنك أعمى..

العجوز لا يجب أن يدخل هذا الشخص... لا نريد أن أضطر لفعل ما فعلت من قبل..

السيدة ولم لا قد كان جميلا ولذيذًا.. حدثٌ.. وسط ملل الصمت والانتظار.. (لنفسها) وجنونك وسيطرتك.

الشاب هل من أحد هنا....؟ لقد رأيت النافذة مفتوحة منذ قليل...

السيدة (تتردد في الرد)

العجوز (بصوت هامس) إياك أن تردي..

السيدة (لنفسها) وماذا يستطيع أن يفعل..؟ (تصرخ) نعم نحن هنا.. (تفتح الباب ويدخل شاب وسيم إلى المكان)

العجوز لا...

الشاب إن السيارة...

العجوز يجب أن تخرج فورا..

السيدة عذرا إن زوجي لا يحب الغرباء..

الشاب أنا آسف.. لكن هذا هو المنزل الوحيد الذي وجدته في هذه الصحراء.. ألديكم هاتف...

السيدة نعم...

العجوز لا.. لا يوجد هاتف..

السيدة بل..

العجوز صمتًا... لا هاتف...من فضلك أخرج..

الشاب إني آسف.. لا داعي للغضب.. سأخرج.. لكن هل يوجد هاتف في الجوار..

العجوز لا ندرى، ثم ألم تخرج بعد. (لنفسه) انج بنفسك. (الشاب ينظر متعجبًا، والسيدة تنظر إلى الشاب في حزن ولهفة. يتحرك الشاب إلى الباب والسيدة تحزم أمرها وتتحرك معه لتوصله وتهمس له على الباب)

السيدة سينام بعد قليل.. عندها عد وتستطيع أن تستعمل الهاتف..

الشاب (ينظر لها طويلا ثم يومئ برأسه ويخرج)

الرجل كيف جرؤت على مخالفة أمرى..

السيدة (تصمت)

الرجل كيف جرؤت...

السيدة نحتاج إلى نجدة...الظلمة حالكة..

العجوز نجدة.. نحن لا نحتاج إلا لما نملكه.. قولي لي.. أهمست له هو الآخر.؟ هه. أهو وسيم. أنا أعرف. كلكن من ذات النوع... تبهركن الأهداب الناعسة، والصوت الرخيم الهادئ كصوت الشيطان الحالم. كلكن تبحثن عن الأضواء الباهرة والثغر الباسم.. لكنك تعدين خلف هباء.. هباء.. ولن أسمح أبدا لهذا الهزل أن يسكن هذى الدار مادام نفس في صدري يتردد..

السيدة عليك اللعنة.. عشر سنين في سجن مظلم... أعانق بدل الحب غبارًا، أسمع عوضًا عن شعرك أصوات

الأشباح.. سلمت لك نفسي كي تشبع نهمك للسيطرة حتى تكاد تقتلني كل يوم.. ما ذنبي أن أدفن شبابي هنا..

العجوز لا تنسى لقد اخترت..

السيدة اخترت شاعرا مرهف الحس يكبرني بخمسة وثلاثين عاما.. فظفرت بمجنون سادي النزعات..

العجوز اخترت.. ولا تملكين الآن غير الالتزام بما اخترت.. لا مكان لك بالخارج حتى يعودا الإلهام إلي، ستظلين تمنحيني حياتك كل يوم حتى أنهي قصيدتي التي لم أبدأ فيها.. وحتى ذاك الوقت، لا مكان لك إلا معي.. معي أنا فقط (يكررها ويخفت فيها صوته حتى ينام)

السيدة بل الآن اخترت.. (تسير نحو الباب بأداء تفتحه ليدخل الشاب)

الشاب أحتاج إلى هاتف...

السيدة هو لك..

الشاب لماذا الجو ظلام دامس...

السيدة ليس لدينا كهرباء.. انقطعت من عشر سنين.. وزوجي يرفض أن أستعمل الهاتف لطلب من يعيدها..

الشاب ولِمَ..؟ (يرفع سماعة الهاتف)

السيدة يقول إن الهاتف مراقب..

الشاب بل هو معطل لا توجد فيه حرارة..

السيدة ماذا..؟ (مصعوقة)

الشاب قلت الهاتف معطل..

السيدة تبدأ في الانهيار ويخرج الشاب من المكان

العجوز (يصحو من النوم) أشم رائحة غريب...غريب كان في دارى..

السيدة أكنت تعرف أن الهاتف معطل..؟

العجوز أهو ذلك الشاب الذى جاء اليوم..؟

السيدة أكنت تعرف أن الهاتف معطل..؟

العجوز لا مفر إذن مما سيحدث لن أتركك أبدا...أنت ملكي..؟

السيدة أكنت تعرف أن الهاتف... معطل...؟

العجوز نعم كنت أعرف...

السيدة تعرف...

العجوز أحبك...

السيدة تحبني.. فتدفنني..؟

الرجل بل أحبك... دعك من أوهامك، لماذا تحتاجين إلى هاتف أو كهرباء مادمت معك..

الشاب (من الخارج) هل لا زلتم هنا..

العجوز عاد الشاب...

السيدة (في حالة ضياع تام) أأفتح..؟

العجوز يعيد التاريخ نفسه بعد عشر سنين...

السيدة أأفتح..؟

العجوز دعينا نكرم ضيفنا كسابقه..

السيدة أمرك يا حبيبي.. (تتحسس عنقها ثم تفتح الباب)

الشاب أأجد لديكم جرعة ماء..

العجوز وشراب أيضا (يشير إلى السيدة فتذهب لإحضار شراب)

العجوز أتملك سيارة..؟

الشاب نعم.. لماذا تغيرت معاملتك.. كدت تقتلني منذ دقائق

العجوز أهي قريبة...؟

الشاب نعم.. (تدخل السيدة بصينية عليها كأسين من الشراب تقدم أحدهما للشاب الذي يتناوله ويجرع عدة جرعات)

السيدة يمكن أن أذهب معك لطلب العون من مصلحة الكهرباء..

الشاب سيارتي معطلة وإلا لماذا جئت أطلب منكم العون..

العجوز ينفجر بالضحك بشكل هستيري

الشاب علام تضحك يا سيدى..

العجوز لدينا الآن شاب ذو سيارة معطلة وعجوز ذو سيارة معطلة أيضا (يواصل الضحك)

الشاب ينظر فجأة إلى كوب العصير في يده ثم ينظر إلى السيدة التي تراقبه بنظرة خاوية ثم يمسك معدته ويسقط على الأرض ميتا

السيدة (بلا مشاعر) قد مات..

العجوز ضعيه إلى جوار الآخرين..

السيدة ألا نعرف من كان..

العجوز وماذا يفيد..؟ أقول لك.. التغير مطلوب أحيانًا.. دعينا نرى حافظة نقوده..

السيدة (تخرج حافظة نقود الشاب وتنظر إلى هويته) مهندس كهرباء... كان يمكن أن نستعين به في إصلاح كهرباء المنزل.. كان يمكن أن يعيد النور..

العجوز وما الفارق بين النور والظلام...

السيدة انظر.. عذرا نسيت أنك أعمى.. هناك هوية أخرى تقول أنه طبيب..

العجوز ماذا..؟

السيدة وهويا ثالثة تقول أنه محام.. مدرس.. صحفي.. رسام..عامل بناء.. سائق...طالب..

العجوز وأيهم هو..؟

السيدة (تنهض وتتجه إلى أمام اليمين) وما الفارق.. هو الآن.. ميت

العجوز نعم.. ويبدوا أننا قتلنا هذه المرة أفاقا...

السيدة وما الفارق بين أن نكون قتلنا أفاقًا أو أملًا قد مات على أيه حالة..

يبتسم العجوز ويسند رأسه مرة أخرى ويغرق في النوم. السيدة تتأمله ثم تجر جثة الشاب إلى الخارج، وتنظر إليها ثم تتحسس عنقها.

إظلام...

العجوز اقبع في دارك وأوصد بابك..
فالعالم بالخارج مجنون..
قد جن فعربد..
والطقس كئيب وملبد..
لا تحلم..
يسرقك الحلم فلا ترجع..
وصحوك أسوأ..
وشتاؤك قاس فتزود..
وأعد نبيذا وعشاء..
واقدح نارك..

أحرق في نارك أشعارك..
فالشعر تجمد في زمنى..
والحرف تجعد...

المرأة (في بؤرة إضاءة) هل أنا جزء من كل ذلك..؟

المرأة (صورتها في المرآة) أنت كل ذلك يا عزيزتي.. السادية مرض، السيطرة مرض، الجنون مرض.. والتعايش مع المرض يتطلب طرفين.. وازدهار المرض يتطلب تعايشًا..

العجوز حبيبتي..

المرأة أمرك يا حبيبي..

العجوز موعد الجرعة اليومية، لا تنسي أن تطرقي على ذراعي قبل النهاية، فلازلت أحتاجك..

تحرك المرأة الكرسي إلى منتصف المسرح ثم تضع يديه على عنقها، الرجل يبدأ في خنقها فلا تطرق على يديه، فلا يتوقف حتى تموت..

ستار ...